

# الباب الثالث

فنون التزكِين الصنعي

عند مفكرى الإسلام



## فنون التكهن الصناعي

عرضنا في الباب السالف مذاهب مفكرى الإسلام ، في فنون التنبؤ الطبيعى الذى يصدر عن وحى أو إلهام إلهى ، أو يكون صدق فطرة لا أثر فيها لصناعة واكتساب ، وسنشرع الآن فى عرض أساليب التكهن الصناعى ، الذى يستند إلى منطق العقل ومهارة الصنعة وسمة الخبرة ، واستغلال المشاهدة واستخدام الأدوات الحسية ، وغير هذا مما يجىء اكتسابا ، قد لا يمنع من توافر طبيعة تهيب أصحابها لذلك ، فإذا استثمروا فيها النقص عمدوا إلى تكتمها بأسباب يتحرونها عامدين ، وقد أبى جبهة مفكرى الإسلام التسليم بهذه الأساليب ، ورفضوا أن يأذنوا بمزاوتها ولكنها كانت معروفة فاشية حتى قبل نزول الإسلام ، ومن هنا وجب التحدث عنها :

## على الكهانة<sup>(١)</sup>

### آفاق الكهانة :

تطابق الكهانة على كثير من ضروب التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها ،

(١) يراد بالعلم هنا مجرد المعرفة البشرية فى ميدان ما ، وليس يحتم أن يطابق اللفظ على =

وأهل الطارق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وأهل الزجر والفأل ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع ، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم<sup>(١)</sup> ولكن جمهرة مؤرخيها يحدونها بأنها اتفاق الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من جن وشياطين ، وأتخاذهم أداة لمعرفة ما يتصل بالمستقبل من الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون والفساد ، وهي أشيع في العرب منها في غيرهم من شعوب الأرض ، واشتهر من بينهم شق وسططيج<sup>(٢)</sup> ومرجع انتشارها بين العرب وندرتها عند غيرهم أنها تولد « على صفاء المزاج الطبيعي ، وقوة مادة نور النفس » وتتصل « بعفة النفس وقع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم » وذلك أن العزلة تدفع النفس إلى التفكير ، فيتأدى بها هذا إلى الكشف عن الغيب بالعين النورية ، ومتى قويت النفس في الإنسان ، أشرفت على دراية الغائبات قبل ورودها ، وقد كان كبار مفكري اليونان ، ينعنون هذه الطائفة بالروحانية<sup>(٣)</sup> . ولكن بعض مؤرخيها لا يقصرها على معرفة المستقبل وحده ، ويرى أنها تكشف عن مجاهل الغيب ، ما اتصل منه بالماضي والحاضر والمستقبل<sup>(٤)</sup> . ولكن اشتمال

---

= المعرفة اليقينية كما ذهب المتكلمون ( ص ٧ ج ١ من أبعاد العلوم ) للفتوحى ولا أن تنظم هذه المعرفة فى صورة قواعد وقوانين كما يستلزم معنى العلم - وبعض ما سنعرف من العلوم ، ليس علوما مستقلة ، لكنها فروع لعلوم فيما يقول الفتوحى ( فى آخر فهرس الجزء الثانى ) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ص ٣٠١ و ٣٠٢ وحاجى خليفة فى كشف الظنون

ج ٢ ص ١٩٥ طبعة دار الطباعة المصرية والفتوحى فى أبعاد العلوم ص ٦٠٠ وقيل إن الكهانة لليمن والزجر لبني أسد والقيافة لبني مدلج ( المسعودى ج ٢ ص ٨٠ ) .

(٣) المسعودى : صروج الذهب ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥

(٤) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ص ٣٠١ وكما أن أهل الفن ليسوا على اتفاق فى

هذا الصدد ، فكذلك الحال فى أهل اللغة ، نبي اللسان ( ج ١٧ ص ٢٤٣ ) أن الكاهن من =

الكهانة على ما سلف من ضروب التنبؤ ، يبرر الظن بأنها تتضمن الكشف عن الماضي والحاضر والمستقبل ، فإن العرافة نفسها تعتبر - عند بعض المؤرخين - من فروع الكهانة<sup>(١)</sup> .

وقيل إن الكاهن لا يستعين في صناعته بآلة ولا بإظهار حساب ولا بنظر في كتاب ، بل بجودة الحفظ وذكاء النفس وصحة العقل وحسن التمييز وحدثة الخاطر ، مع مساعدة ما اتفق له في مولده الذي أوجب له ذلك<sup>(٢)</sup> ، وهي قوة إلهية تتوافر في الناس بمسماها سماوية وأسباب فلكية وأقسام علوية ، يرثها بعض الناس فرداً عن فرد<sup>(٣)</sup> ، ولكن بعض المؤرخين قد شطرها شطرين : خص أحدها بالتوارث وجعل الكهانة فيه من نواحي بعض النفوس ، فلا تجيء اكتساباً<sup>(٤)</sup> ، فيزعم هذا النوع من الكهان بأن له تابعاً من الجن ورثياً يأتي إليه الأخبار . أما الصنف الثاني من الكهانة فهو ما كان بالمزائم ودعوة السكواك والاشتغال بهما<sup>(٥)</sup> . وفي المصادر العربية الكثير من أخبار الكهان<sup>(٦)</sup> .

---

== يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ويقول التاج ( ج ٩ ص ٣٢٩ ) تكهن أي قضي بالغيب - ولم يحدد لذلك زماناً - ولكنه يعود في تفرقة الكهانة من العرافة فيقول ( ج ٦ ص ١٩٣ ) بأن العراف من يخبر بالأحوال المستقبلية ، والكاهن من يخبر بالأحوال الماضية .

(١) ابن خلدون في المقدمة ص ٩٢ ويصرح المسعودي ( ج ٢ ص ٨٤ ) بأن العراف دون الكاهن .

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٨٢ .

(٣) أبو حيان التوحيدى في المقابسات ص ٣٢٦ - الطبعة الأولى عام ١٣٤٧ هـ

(٤) ، (٥) حاجي خليفة في كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ والتقنوجي في أبعاد العلوم

ص ٦٠٠

(٦) المسعودي : صروح الذهب ج ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

### أصل الكهانة :

إذا كانت الكهانة قد فشت عند العرب ، فقد عرفت عند غيرهم ، وقد ردها بعض اليونان والرومان إلى صغاء النفوس ، على اعتبار أن صور الأشياء عندهم قائمة في النفس السكينة ، وقد ذهب بعضهم إلى أن الأرواح المنفردة - وهي الجن - تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم قد صفت حتى انفقت مع أرواح الجن ، وسرد الكهانة إلى ثلاثة مصادر :

أولها : استراق السمع - ويكون هذا طريق شيطان يسترق السمع ويبقى بالأخبار إلى الكهان ، قال تعالى « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » وقال كذلك « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ... » الآية . والمعروف أن الشياطين والجن لا تعلم الغيب ، ولكنها تسترق السمع مما يسمع من الملائكة ، قال تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

وثانيها : الوحي الفلكي - ذلك أن للكواكب أثراً على دولد الناس - وسنعود إلى بيان هذا في فصل التنجيم .

وثالثها : الملل النفسية - فالنفس : « إذا قويت ، قهرت الطبيعة وأبانت للإنسان كل سر لطيف » .

وقد رد أصحاب هذا الرأي العلم للنفس ، لا للجسم الذي اعتبروه مواتاً لا تعتربه حركة ولا يغشاه حس إلا بالنفس<sup>(١)</sup> . وسيوضح بعض هذا عند ما نعرض للعلاقة بين الكهانة والنبوة .

---

(١) المصدر السالف ص ٨٢ - ٨٤ وقارن « مرجليوت » في مادة Divination (Muslim) في دائرة معارف الدين والأخلاق .

### صلة الكهانة بالنبوة :

أشرنا إلى أن بعض المفكرين يرى أن في النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها ، وأن هذا يتحقق للأنبياء فطرة لا اكتساباً ، ولا يحتاجون فيه إلى الاستعانة بشيء من المدارك أو التصورات أو الأفعال البدنية ، كالأفعال البدنية ، وإذا سلمنا بهذا الاستعداد الفطري في الطبيعة البشرية ، أوجب العقل أن نسلم بوجود صنف من البشر أدنى من الأنبياء رتبة ، لأن هذا الانسلاخ لا يتهيأ له بغير الاستعانة بما أسلفنا الإشارة إليه من مدارك وأدوات<sup>(١)</sup> ، فإن هذه القوة الإلهية — الكهانة — إذا أحس بها من نفسه تحرك بالإرادة ليكمل نقصها فيبرزها في أمور حسية<sup>(٢)</sup> جزئية محسوسة أو متخيلة من أجسام شفافة وعظام حيوانات ، وما صنع من طير أو حيوان ، فيستديم إحساسه بذلك ليستعين به على الانسلاخ السالف الذكر ، ولما كانت هذه النفوس مفضولة على النقص والقصور عن بلوغ الكمال ، كان إدراكها للجزئيات أكمل من إدراكها للكليات ، وأداتهم في ذلك مخيلة بالغة القوة ، وليس يقوى الكاهن على إدراك المعقولات إدراكاً كاملاً ، لأن وحيه من وحي الشيطان<sup>(٣)</sup> ، فإذا كان الكاهن لا يشوب فيه شيء من الحس ، ويلقى نبوءته على صفائها ونقائها ، كانت كهانته أقوى وأكمل ، لأن قوتها تنسكب عندئذ من المحل الأعلى ، ولكن نفوس الكهانة على نقص وقصور — كما أسلفنا — ولهذا اعترى الخطأ نبوءاتهم ، لأن قوتهم لا تبلغ الغاية في الخلاص أبداً<sup>(٤)</sup> ، ومن

(١) ابن خلدون في مقدمته ص ٨٧

(٢) ابن مسكويه في الفوز الأصغر ص ١١٣

(٣) ابن خلدون ص ٨٧ (٤) أبو حيان التوحيدى في مقابساته ص ٢٢٧

أجل هذا قيل إن الكهانة تكون عن منيب والنبوة عن مسين ، والميان معلوم ،  
والغائب موهرم<sup>(١)</sup> ، ولهذا فإن صاحب النبوة لا يخطئ ، وهذا هو الذي يميزه عن  
الكاهن ، والكاهن إذا اتفق له أن يكون صادقاً لا يتجاوز بما يدعيه رتبته ومقامه ،  
فإنه إذا لاح له أمر النبي عرف فضله وسارع إلى تصديقه ، وكان أول مؤمن به ومنتسب  
لأوامره ، كما روى عن سواد بن قارب وطايحة وغيرها<sup>(٢)</sup> وإن كان النبي عرضة  
للسهو كما في حديث ذى الدين<sup>(٣)</sup> ولهذا يستعين الكاهن بالكلام المسجوع الموزون ،  
ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على الاتصال الناقص ، فيهبس هجساً  
ربما صدق ووافق الحق ، وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر خارج عن ذاته المدركة  
مباين لها غير ملائم ، فيمرض له الصدق والكذب جميعاً ، وربما يفرغ إلى الغلغلة  
ويلوذ بالتخمينات ، حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتعميها على السائلين ؛  
وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم ، وقد  
قال الرسول هذا من سجع الكهان ، نفخ السجع بهم ، وقال لابن صياد حين  
سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هذا الأمر؟ « قال يأتيني صادق وكاذب  
فقال خلط عليك الأمر ، أي أن النبوة خاصتها الدقة بحيث لا يعتمرها الكاذب  
أبداً ، لأنها اتصال من ذات النبي باللائ الأعلى دون استمالة بأجنبي — كما هو الحال  
في الكهانة<sup>(٤)</sup> وربما يتجرى الكاهن الكذب عامداً مخافة أن يبور سوقه وتكسبه  
بضاعته ، فيخبر بما لا أثر له في نفسه ، وما لا يجد له حركة ، وذلك لتمويه أمره ،

(١) الماوردي : أعلام النبوة ص ١٠٣

(٢) ابن مسكويه في انغوز الأصغر ص ١١٤ وابن خلدون ص ٨٨ - ٨٩

(٣) أبو حيان التوحيد ص ٢٢٧ وقد ورد الحديث منفصلاً في الهامش

(٤) ابن خلدون ص ٨٧ - ٨٨

فيضطر بذلك إلى الظنون والتخمينات<sup>(١)</sup> وربما عمد إلى الكذب طمعاً في النبوة ،  
ويحملهم هذا على عدم التسليم بنبوة من يماصرهم من الأنبياء ، كما وقع لأمية بن الصلت  
وابن صياد ومسيلمة وغيرهم ، فإن غلب الإيمان وانقطعت أمانيتهم في النبوة آمنوا  
أصدق إيمان -- كما أشرنا من قبل<sup>(٢)</sup> .

وقد ذهب بعض المفكرين إلى أن الكهانة قد انقطعت بمجيء الرسول<sup>(٣)</sup> ، وأن  
الكهان قد حرموا بعد بعثة النبي من كشف الغيب ، حتى ورد في بعض الروايات  
أن لا كهانة بعد النبوة ، ولهذا فليس يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم لأن  
هذا من دلالات الكفر ، فقد قال النبي : من أتى كاهننا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما  
أنزل على محمد . كما يروى الماوردي<sup>(٤)</sup> . وقيل إن النبي حين بعث وحرس السماء  
بالشهب ، ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة ، بطل علم  
الكهانة ، وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذي فرق الله به بين الحق والباطل ،  
وأطاع نبيه بالوحي على ما شاء من علم الغيوب التي محزت الكهنة عن الإحاطة بها .  
ولكن بعض المفكرين لا يسلم بهذا الرأي ، ويرى أن علوم الكهان قد تكون  
مستمدة من الشياطين ، وقد تكون من فيض نفوسهم ، والآية القرآنية التي نزلت  
في هذا الصدد ، إنما دلت على منع الشياطين من معرفة نوع واحد من أخبار السماء ،  
وهو ما اتصل بأخبار البعثة ، أما ما سوى ذلك فإنه مباح لهم ، ثم إن هذا الانقطاع  
قد اقتصر على زمن النبوة ، ولم يتجاوز إلى غيره من أزمان ، فلعل الشياطين أن  
تكون قد عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه قبل عهد النبوة ، فإن هذه المدارك تخمد

(١) ابن مسكويه ص ١١٣ (٢) ابن خلدون ص ٨٩

(٣) ابن حزم ج ٥ ص ١٧

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ والتتويج ص ٦٠٠

زمنها كما تخمد الكواكب والسرج عند ظهور الشمس ، وقد زعم الحكماء أن الكهانة توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت ، لأن وجود النبوة يتطلب وضعاً فلكياً يقتضيه ، ويتمشى تمام النبوة طردياً مع تمام ذلك الوضع ، عكسياً مع نقصه ، ونقصه يقتضى وجود طبيعة تشبهه في النقص ، وهى طبيعة الكاهن ، وعلى هذا فإن الوضع الناقص الذى يقتضى قيام الكهانة ممثلة فى فرد أو أفراد ، يسبق الوضع الكامل الذى يستلزم وجود النبوة ، وقد انقضت الأوضاع التى تدل على مثل تلك الطبيعة ، فليس يوجد منها شيء بعد ، وقد قرر الحكماء هذا استناداً إلى أن بعض الوضع الفلكي يقتضى بعض أثره ، وهذا غير مسلم به ، فإن الوضع قد يقتضى ذلك الأثر ناقصاً بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها ما اقتضى نقصها شيئاً ، وقد رأينا أن للكهان بعض الوجدان من أمر النبوة ، كما أن فى كل إنسان بعض الوجدان منها إبان نومه ، ونسبتها فى الكاهن أعظم منها فى النائم ، وقد عرفنا موقف الكهان من النبي إن عاصروه<sup>(١)</sup> . وإذا كانت الكهانة نموذجاً من النبوة أوضح من نموذج الرؤيا الصادقة ، فإن بعض الكهان قد طمع فى النبوة كما عرفنا من قبل ، وليس من المسير أن يعرف نبأ الكاهن الذى يدعى النبوة زوراً ، فإن معجزة النبي فعل خارق للعادة بالتجدي يؤيد النبوة عن الله ، أما الكهانة فإنها كلمات تجرى على لسان الكاهن ، تتراوح بين الصدق والكذب ، والنبي لا يكون إلا كامل الخلق والخلق معاً ، أما الكاهن فإنه يكون مختل العقل ناقص الخلق مزوراً ، فإن ادعى النبوة بكهانتة فقد انكشف أمره ، إذ قد يتصدى له كاهن آخر ويتجدها بكهانتة ، فتمتنع الفروق بينهما ، وذلك ما لا يقع فى حال النبوة أبداً<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن خلدون ص ٨٨ - ٨٩

(٢) الشعرانى : النواقيت والجواهر ج ١ ص ١٤٥ وما نظن أن سائر المفكرين يساهون معه بأوصاف الكاهن على النحو الذى أسلفه ، ولعل اختلال العقل يساعد على التكهن ولا يعوقه .

## سراتب الكهانة :

أشرنا فيما أسلفنا إلى الشائع من أصناف الكهان ، وهم يتفاوتون في سراتب الكهانة ، والكاهن الأصيل لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى عناء كبير ، أما هؤلاء فإنهم يحتملون المشقات في حصر جميع مداركهم الحسية في نوع واحد منها ، وأشرفها البصر ، فيعكف الكاهن على المرئي حتى يتراءى له المدرك الذي ينبي عنه ، والكاهن لا يشاهد هذا المدرك في سطح المرآة ، بل إنه يديم النظر في سطحها ، وبطيل أمره حتى يتعيب عن البصر ، ويبدو بينه وبين سطح المرآة حجاب ، كأنه غمام تتمثل فيه صور تشير على الكاهن بالمطلوب سلباً أو إيجاباً ، وهو لا يدرك من أمر المرآة وصورها شيئاً ، وإنما يكون إدراكهم نفسانياً لا يتصل بالبصر ، ومن ذلك ما يمرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها ، وللناظرين في الماء والكأس ونحوها ، ومن هؤلاء الكهان من يكتفي بأن يشغل الحس بالبخور ثم يهيمه بالعزائم ، ويخبر بعد هذا بما يدرك ، ويزعم بعض هؤلاء أنه يرى في الهواء صوراً مجسمة تحكي له بالمثل والإشارة ما يبتغى إدراكه ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من غيبة من أسلفنا ذكرهم (١) .

## مخروج من الكهانة :

نهضت دولة سبأ باليمن ، وكانت هذه على كثرة وديانها واتساع أرضها ، تعوزها الأنهار وتمهددها سيول الأمطار ، فأقام أهلها مئات السدود ، اتقاء لشر السيول ،

(١) ابن خلدون ص ٩٣ ويشبه الأستاذ « مرجليوث » Margoliouth ذلك بما يعرف

حديثاً بـ Crystal-gazers ( أنظر مقاله في دائرة معارف الدين والأخلاق )

ورغبة في الانتفاع بالمياه المحجوزة في رى الأرض ، وكان سد مأرب أعظمها جميعاً ،  
حوّل جذب الأرض خصوبة ، وعمقها إنتاجاً ، ولكنّه تهدم وسرعان ما أغرق  
الزرع وأحال الأرض بلقعا ، فتشتت أهلها ، ومضت غسان إلى الشام والأزد إلى  
عمان ... الخ وقد ورد ذكر هذا السيل في سورة سبأ من القرآن الكريم .

ويقول مؤرخو الكهانة إن الكهّان قد عرفوا نبأ السيل قبل وقوعه ، ونصحوا  
أولى الأمر في البلاد بالعمل على اتقاء شره ، وكان هذا في عهد عمرو بن عامر الذي  
تولى رئاسة ولد قحطان ، إذ كان أخوه « عمران » كاهنا عقيما ، وزوجته « ظريفة  
الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ، فأنبأ أخاه  
بما رأى في كهانته ، وكان هذا أول نبأ عرف عن سيل العريم . وبينما كانت ظريفة  
الخير نائمة ذات يوم ، إذ رأت سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت  
إلى الأرض فلم تصب شيئا إلا أحرقتة ، ففزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد ،  
وأنت زوجها الملك وهي تقول إن ما رأته قد أذهب عنها النوم ، إذ رأت غيا أبردق  
وأرعد طويلا ، ثم أصمق فما وقع على شيء إلا احترق ، فما بعد هذا إلا الفرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروع ، سكتوا من جأشها ، حتى ثابت إلى نفسها ، ثم  
دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفا لها أن  
يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجد ( دواب باليمن )  
منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها  
وجاست ، وطلبت إلى وصيفها إن يبلغها متى انصرفت هذه المناجد ، فلما أبلغها ذلك ،  
انطلقت مسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديدية ، ووثبت منه سالحفاة وانقلبت  
على ظهرها ، وحاولت أن تعتلد على غير جدوى ، فاستعانت بذيها وحثت التراب على  
بطنها وجنبها وقذفت بولا ، فهوت الكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السالحفاة إلى

الماء ، انطلقت ظريفة إلى زوجها في الحديقة ، وكان النهار قد انتصف واشتد حره ،  
 فإذا الشجر يتسكفاً من غير ربح ، فلما أقبلت على زوجها ، ألقت الجاريتين على الفراش ،  
 فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمفادرة الفراش لتأخذ زوجها مكانهما ،  
 فكهننت هذه وقالت — في سجع الكهان المعروف — : « والنور والظلماء ،  
 والأرض والسماء ، إن الشجر لتألف ، وليمودن الماء كما كان في الدهر السالف » .  
 فسألها عن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرني المناجد ، بستين شداً ، يقطع فيها  
 الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لهما ، قد رأيت  
 سلحفاً ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ، فإذا  
 الشجر يتسكفاً . » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هي داهية ركيمة ، ومصيبة  
 عظيمة ، بأمور جسيمة . » قال وما هي وبلك .. ؟ قالت « أجل إن لي فيها الويل ،  
 وما لك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيء به السيل » فألقى نفسه عن الفراش  
 وقال لها : ما هذا يا ظريفة .. ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف  
 قليل ... » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين .. ؟ قالت : « اذهب إلى السد ، فإذا  
 رأيت جرداً ( فأراً ) يكثر بيديه في السد الحفر ، ويقاب برجليه من الجبل الصخر ،  
 فاعلم أن الحفر حفر ، وأن قد وقع بنا الأمر . » قال وما هذا الأمر الذي يقع .. ؟ قالت :  
 « وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن  
 الشكل » فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقب برجليه صخرة لا يقوى  
 على قلبها خمسون رجلاً .. ! فكفر إلى زوجته ، وأنبأها بالخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادني منه ألم	وهاج لي من هوله برح السقم
من جرد كفحل خنزير الأجم	أو تيس صرم من أفريق الغم
يسحب صخرأ من جلاميد المرم	له مخالب وأنياب قضم
ما فاته سحباً من الصخر قضم	كأنما يرعى خضيرا من سلم

فقلت ظريفة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ مجلسك بين الجنتين ، ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك ، فإن الريح تملأها من تراب البطحاء ، مع أن الجنان مُظَلَّلَةٌ ، لا تدخلها شمس ولا ريح ..! فلما فعل ، امتلأت الزجاجاة بعد قليل من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى ترين هلاك السد ..؟ قالت في سبع سنين . قال ففي أيها يكون ..! قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتى أحد علم ذلك لكننته ، ولا تأتي عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السد يبيد في غدها أو في اثنتائها ، ورأى عمرو في منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك ، أن ترى الحصباء قد ظهرت في سمف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البلاء واقع ، والحراب نازل ، فكتم الأمر واعتزم التخلص من ممتلكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سبأ ، ولكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال للأمر حتى أهانه ابنه وضربه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما ..! فصاح : واذلاه ..! وأقسم ألا يقيم بهذا البلد ، وباع كل ما يملك ، ثم استفتى أخاه الكاهن في البلد الذي يرحل إليه ، فقال الكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد ، فليأحق بقصر عمان المشيد ، « فكان الذين نزاهه أزد عمان ، فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمت الدهر ، فليأحق ببطن مر « فكان الذين سكنوه خزاعة ؛ قال : « ومن كان منكم يريد ... إلى آخر ما يحكيه رواية القصة (١) .

ولنا على هذه القصة تعقيب نحاول فيه أن نحللها في ضوء المنطق ، نرجئه إلى

« موقفنا من التكهن الصناعي . »

(١) انظر المسمودى ج ٤ ص ٣٧٨ - ٣٩١ في الطبعة الأوربية . وثمة أمثلة أخرى كثيرة رواها المؤرخون ، من أهمها تكهين « سطيح » بمجيء رسول الله ( انظر الإبيشيبي ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ )

## عمل العرافة<sup>(١)</sup>

عرفها وتمييزها عن الكهانة :

أشرنا إلى أن مفكرى الإسلام ليسوا على اتفاق بسدد التفرقة بين الكهانة والعرافة ، وقلنا إنهم رغم هذا الخلاف في شأن اتصال الكهانة بالزمن الذى يكشف أصحابها أحداثه ، يرون أن العرافة تكشف عن أحداث المستقبل وحده ، وقد عرفنا ذلك عند أهل اللغة كذلك ، ومن المفكرين من خص العرافة بالمعرفة التى تقوم على أسباب سابقة تمهد لهم ، ولعل الأصح أن نخص العرافة بما كان عن كسب وخبرة واستدلال وحس ، فإن ذلك أدرى إلى الاتفاق مع حدها الذى نراه عند مؤرخيها ، من أنها معرفة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية ، بالمناسبة أو المشابهة الخفية التى تكون بينهما أو الاختلاط أو الارتباط ، على أن يكونا معلولين لأمر واحد ، أو يكون ما فى الحال علة لما فى المستقبل ، وخفاء الارتباط يشير إلى أن الاطلاع عليه ليس ممكناً للناس كافة ، والذين يهتدون إليه ، يعتمدون على

---

(١) يشير المستشرق بينس S. Pines فى كتابه عن مذهب الجوهر الفرد عند المسلمين إلى أن للجاحظ كتاباً يسمى باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس ، نشره وترجمه K. Inostranzei ويقول إن لهذا الكتاب شأنًا فى دراسة معرفة مفكرى الإسلام بمذاهب اليهود فى العرافة والفراسة . وقد نقل كتاب Pines إلى العربية صديقنا الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده ( والترجمة لم تطبع بعد ) .

ما تهيأ لهم من تجربة ، أو من فطرة أودعها الله في نفوسهم ، عبر النبي عن أصحابها بالمحدثين أى المصيبين في الظن والفراسة ، وكم في الكتب التي أرخت هذا من أحداث وقصص تثبت صحة ما يدعيه أصحاب العرافة<sup>(١)</sup> ونلاحظ من هذا الحد أمرين :

### أولهما :

أن العرافة لا تقوم على طبيعة النفس دواما ، فربما استندت إلى ما تهيأ للعراف من تجربة ومهارة وذكاء — فإن صح هذا — ولم يكن مؤرخوها أو ناشرو كتب تاريخها قد أخطأوا حين قالوا في تحديد طريقتها « إما بالتجارب أو بالحالة المودعة في أنفسهم عند الفطرة » . إن صح هذا كانت العرافة في بعض حالاتها تجيء اكتسابا ، ولا تعتمد على طبيعة في نفوس أهلها .

### وثاني الأمرين :

أن العرافة — فيما نرى من حدها — لا تشمل الكشف عن الغيب متى اتصل بالماضي أو الحاضر ، وإنما تقتصر على ما ارتبط بالمستقبل وحده ، ولعل المفكرين على اتفاق بصدد الأمر الأخير ( الاقتصار على كشف المستقبل ) ، أما الأول فقد اختلفوا في أمره ، حتى بدا هذا الخلاف عند المفكر الواحد . فمن ذلك أن ابن خلدون — وهو صاحب الفكر الناضج — يقيم العرافة على الفكر والحدس ، فيقول ما نصه « وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال — بالملا الأعلى — فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ، ويأخذون فيه بالظن والتخمين

(١) طاشكبرى زاده في مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٣ ، وحاجي خليفة ج ٢ ص ٢١ ،

والفتوحى في أبجد العلوم ج ٢ ص ٥٤٤ وما بعدها

بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك<sup>(١)</sup> . وقبل ذلك بصفتين اثنتين يقرر عكس ذلك تماما ، أي أن العرافة تعتمد على الفطرة ولا تستند إلى الصناعة إذ يقول ما نصه :

« ثم إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم ، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما تجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين ... الخ<sup>(٢)</sup> وقد أداه هذا التناقض بطبيعة الحال إلى أن ينتهى بالعرافة إلى نتيجتين متناقضتين ، فبينما نلاحظ أنه في النص الأخير يعترف بأن العرافة من إدراك الغيب ، نجده يمتد على النص الأول قائلا « ويدعون بذلك معرفة الغيب ، وليس منه على الحقيقة .. ! » وقبل هذا التمايق بصفحة واحدة أشار إلى أنه مقبل على الحديث عن أصناف الإدراك الغيبي بمد أن أبان عن استمداد النفس البشرية له .. !

ولسكن لا ينبغي أن نمنعنا هذا من تقرير الرأي الراجح ، وهو أن العرافة تقوم على استمداد في بعض النفوس ، وتستند إلى صناعة تساعد هذا الاستمداد ، ولهذا اعتبرت إدراكا للغيب ، وإن صادفت من رجال الدين ما صادفته الكهانة من وجوه الإنكار ، والاستناد فيه إلى الأحاديث النبوية . وسنعرف هذا في موقف الدين من هذه الفنون .

### آفاقها :

تضمنت الكهانة الكثير من أصناف مدركي الغيب على نحو ما عرفنا من قبل ،

(١) ابن خلدون ص ٩٤ (٢) المصدر السالف ص ٩٢

وكذلك الحال في العرافة ، وكما كان العرب يسمون كل من يتعاطى علما دقيقا كاهنا ، فكذلك أطلقوا على الطبيب والكاهن والمنجم والحاوي الذي يدعى علم الغيب عرافا ، ورغم سعة معناها على هذا النحو ، فإن بعض مؤرخيها قد اعتبرها من فروع الفراسة ، ولعل في بعض ما أسلفناه من شرح معانيها ما يبرر إدخالها في هذا العلم ، وفي الحديث النبوي السالف ما قد يؤيد ذلك ، وتقسيمها عند بعض مؤرخيها إلى ما يجيء اكتسابا وما يكون فطرة وطبيعة قد يقوى من هذا الاتجاه ، ولكننا آثرنا أن نفردها بالكلام لما بينهما من خلاف في الموضوع ، أخصه أن الفراسة وإن كانت تكشف عن مجاهل مغيبة عنا ، فهي لا تكشف مستقبلا ولا ماضيا ، وإنما هي استدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن كما سنعرف بعد .

### نماذج من العرافة :

جرت العرافون على الاستدلال على المغيب عنهم ، بكامة تسمع عقب السؤال أو منظر يرى ، أو مكان في الجسد يضع السائل يده عليه عند توجيه سؤاله ، إلى آخر هذه العلامات التي سنتناولها بالتعميق عند ما نعرض لإبداء رأينا في أساليب التكهن الصنمى .

ومن أمثلة العرافة أن كان في زمن هرون الرشيد عراف أعمى ، يستدل عن المسئول عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال ، فسرق من خزانة الخليفة أشياء ، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال ، فأمر العراف يده على البساط فوجد نوى تمر ، فقال إن المسئول عنه دُرّ وياقوت وزمرد في سقطة .. ! فسأل الرشيد عن مكانه ، فقال العراف إنه في بئر ، فوجدوه كذلك .. !! وسئل العراف في ذلك ، فقال وجدت نوى تمر ، وطلع النخلة أبيض

وهو كالدر ، ثم يكون بسراً وهو أخضر ، وهو لون الزمرد ، ثم يكون رطباً وهو  
أحمر ، وهو لون الياقوت !! فاستأثمت عن مكان المسروق ، سمعت صوت دلو ،  
فعرفت أنه في بئر .. ! فاستحسن الرشيد فراسته ، وأعطاه مالا جزيلاً .. !

وكان أبو معشر وصاحب له ماريّن في خلاص مسجون ، فسألا عرافاً ، فقال  
أنتما في طلب خلاص مسجون ، فسأله أبو معشر : وهل يخلص ؟ قال نعم تذهبان  
فتجدانه خلص ، فوجدا الأمر كما قال .. ! فلما استفسر أبو معشر عن ذلك ، قال له  
العراف نحن قوم نأخذ الفأل باليمين والنظر ، فينظر واحدنا إلى الأرض ، ثم يرفع  
رأسه ، فأول شيء يقع نظره عليه ، يكون الحكم به . فعند أول سؤال وجهته إلى ،  
رأيت ماء في قرية فقلت هذا محبوس ، وعند السؤال الثاني نظرت فإذا هو قد أُفْرِغَ  
من القرية ، فقلت يخلص .. !!

وقد يستدل العراف بالمكان الذي يضع السائل يده عليه في جسمه عند  
السؤال ، فالرأس يرمز إلى الرئيس أو الكبير ، والأنف بناء مرتفع أو تل أو  
مأشبهه ، والقم بئر عذبة ... الخ<sup>(١)</sup>

حسبنا هذا ، ولنرجى رأينا في هذه النماذج ، إلى « موقوفنا من التكبير  
الصنمى » .

---

(١) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٤ - ٦ والفنوجى فى أيجاد العلوم  
ص ٥٤٤ - ٥ وقد ذكر الإشبهى ( ج ٢ ص ١٠٣ ) قصة خلاف المسجون من غير إشارة  
إلى أبى معشر

## علم الفأل والطيرة والعبادة

يراد بعلم الفأل عند مفكرى الإسلام ، الكشف عن الحوادث المقبلة اعتماداً على كلام يسمع من الغير اتفاقاً ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفواً ، وقد جرى هذا في غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحافظ والمنوى ونحوهما<sup>(١)</sup> . أما الطيرة فالشائع أنها تطلق على عكس ما يطلق عليه الفأل ، فإن المطلوب فى الفأل طلب الإقدام ، وفى الطيرة طلب الإحجام ، وأصل الطيرة أن يتشاءم المرء من شيء تتأثر النفس من وروده على الأسماع أو الأبصار تأثراً يغير الطبع ، فإن النفرة الطبيعية من الصوت الذى يحدثه صرير الزجاج أو نهيق الحمار أو نحوه ، ليست من هذا القبيل<sup>(٢)</sup> .

وقد جوز البعض استعمال الفأل فى الخير والشر معاً ، وفيما يحسن وفيما يسوء ، ووردت الطيرة جنساً والفأل نوعاً<sup>(٣)</sup> ، وفى اللغة ما يبرر هذا الاستعمال<sup>(٤)</sup> .

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ ، طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٨ والقنوجى ص ٥٥٤

(٢) طاشكبرى ٢٩٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ ، والقنوجى ٢٣٦ وفى شيشرون

Cicero الذى ذكرناه من قبل أمثلة كثيرة عند الرومان تقابل هذا الذى عرفه المسلمون .

(٣) أشار التهانوى إلى الفأل بهذا المعنى العام الشامل ج ١ ص ٩٠٧

(٤) طاشكبرى زاده ص ٢٩٩ وحاجى ج ٢ ص ٦١ والقنوجى ٥٥٦ وعند الرومان

ما يشبه ذلك تماماً ، قارن شيشرون فى الفقرة الاربعين من الكتاب الثانى ، رداً على ماجاء فى

الفترة ٤٦ من الكتاب الاول .

وقد شاعت الطيرة عند الكثيرين من العرب حتى تسكدر بذلك عيشهم وفسد دينهم ، وتفتحت عليهم أبواب الوسوسة لاهتمامهم بالمناسبات البعيدة من حيث اللفظ والمعنى ، كالسفر والجللاء من لفظ السفرجل إذا سمعه أو اهتدى إليه ، وإذا رأى الياسمين قال بأس ومين ..! واستنتج من الوسوسة سوء سنة ..! وإن بارح داره فاستقبل صاحب آفة تطير بيومه وتشاءم وهلم جرا ..! (١) ومن المعاني التي تحملها الطيرة والفأل : فن العيافة عند العرب :

### فن العيافة :

أطلق البعض العيافة على أحد قسمي القيافة ، ونمى به قيافة الأثر - لا البشر - وسنتحدث عنها بعد ، ولكن الذي جرى لغة وإصطلاحاً أن العيافة زجر الطيور (٢) ، وقد قال القاضي : إن العيافة هي الزجر ، وهو الفأل بأسماء الطيور وأصواتها وألوانها ، كما يتفائل المرء بالعقاب على العقوبة ، والغراب على الغربة ، والمدهد على الهدى ، وقيل إنها تفرق عن الطيرة في أنها تجمع بين التشاؤم والتسعد (٣) ، ولكننا عرفنا أن أهل اللغة قد يوردون الطيرة جنساً والفأل نوعاً . وعلى هذا فليس من فارق بينهما إلا في أن العيافة قد خصت بالطيور ، فإن الأصل في هذا أن العرب كانوا يزجرون الطير

(١) قارن تاج العروس ج ٨ ص ٥٤

(٢) القنوجي في أبعاد العلوم ص ٥٤٩ وقد أشار إلى أن هذا هو المعنى الذي يفيد القاموس والمصباح . وقارن في العيافة إجمالاً كثيراً من الفقرات التي وردت في كتاب شيشرون تبين الآراء المتقابلة بين المسلمين والقدماء ، وانظر الفرق بين العيافين عند الرومان وعند الأغريق وغيرهم ، في الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الثاني ، وتعليق « فالكونر » عليها .

(٣) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ج ١ ص ٩٠٧

- وألحق بذلك غيره من طباء ونحوها - أو يمافونه - أى يصيحون به أو يرمونه بحجر - فإن ولاهم فى طيره ميامنة سموه سأنحا وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسرة سموه بارحا وتشاءموا منه<sup>(١)</sup> ، فالسائح مرجو عند العرب ، والبارح هو الخوف<sup>(٢)</sup> ، وإن كان بمضمهم يتطير بالسائح ويقامن بالبارح ، فأهل نجد يقيمون بالسائح ، وأهل التهامم بالضد من ذلك<sup>(٣)</sup> . وقد سى السكان زاجراً لأنه إذا رأى ما يتوهم التشاؤم منه ، زجر بالنهى عن المضى فيه ، ويكون الزجر اللدواب والإبل والسباع<sup>(٤)</sup> .

### الفأل والطيرة بين التأيسر والتونسطار :

اختص العرب فى الجاهلية بالزجر ، وشاع الفأل بعد ذلك فى الإسلام<sup>(٥)</sup> ، فقد عرفنا أن الطيرة قد عكرت على العرب صفو عيشهم ، فلما أقبل الإسلام نهى النبى عن الطيرة فقال : « لا طيرة ولا هامة ولا سفر » ، وكان يحب الفأل ، قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً ينادى : يا سالم ، فقال لأصحابه سامنا ، ولما دخلها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا ... هذا ما رواه أهل السير والله أعلم بسنده فيما يقول بعض مؤرخى الفأل والزجر<sup>(٦)</sup> .

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٩ ، والقنوجى ص ٥٥٥ ، ٥٣٦

(٢) المسعودى . مروج الذهب ج ٢ ص ٨٠

(٣) المصدر السائل ج ٣ ص ٨٢ وانظر هذا الخلاف بين الأغريق واللاتين فى تعليق

شارل أبون على الفقرة السابعة من الكتاب الأول فى شيشرون .

(٤) كان الرواقية يردون حركة السائح والبارح - من الطيور - إلى إرادة الله - انظر الفقرة

٥٢ من الكتاب الأول فى شيشرون وتعلقى شارل أبون على ذلك .

(٥) إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٧٤

(٦) القنوجى ص ٥٥٥ وطاشكبرى زاده ص ٢٩٨ والأبشيهى فى المستطرف فى كل =

وقد اشتهر عمر بن الخطاب باستكناه الألفاظ في معرض التفاؤل أو الإنذار ،  
فمن ذلك أن رسولا من ميدان نهاوند ، أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال  
قريب ، فسأله عن أبيه فقال : ظفر ، فقال عمر متفائلا : ظفر قريب إن شاء الله ،  
ولا قوة إلا بالله<sup>(١)</sup> .

وانصرف جعفر البرمكي إلى داره في وقت خات فيه الطارق من المارة ، فسمع  
منشداً يقول :

يدبر بالنجوم وليس يدري ورب النجم يفعل ما يريد

فتطير ودعا بالرجل وسأله عما يقصد ، فقال إن البيت عرض له وجري على لسانه  
على غير مقصد ، فأمر له بدينار ومغضى لوجهه وقد أدركه الضيق ، فلم يمض إلا قليل  
- فيما تقول الرواية - حتى أوقع به الرشيد<sup>(٢)</sup> .!! وسنعود إلى مناقشة هذه الأمثلة ،  
وبيان اختلاف المساهين في الأخذ بها .

وقد شهد الشرع بجواز التفاؤل بالقرآن ، وأيدت التجربة - فيما يقال - صدق هذا  
التفاؤل ، ونقل عن الصحابة والسلف الصالحين ، واشتهر الفأل الذي يؤخذ بفتح المصحف ،  
وإن كان الأفضل الاعتبار بالمعاني دون الألفاظ والحروف<sup>(٣)</sup> ويسمى هذا بالاستخارة  
ويقول «ابن» إن من زاوطنا يبدأ بتلاوة الفاتحة وسورة الإخلاص ، والآية : وعنده  
مفتاح الغيب لا يعلمها إلا هو ... « ثلاث مرات ، ثم يسقط المصحف بحيث يفتح

---

= فن مستظرف ج ٢ ص ١٠٣ وشبه هذا ما يرويه « كوتوس الرواقى » في الفقرة الخامسة  
والأربعين والسادسة والأربعين وغيرهما من الكتاب الأول من شيعرون ، وقد فند شيعرون هذا  
الاتجاه في الفقرة الأربعين من الكتاب الثانى .

(١) عبقرية عمر ص ٣٦ (٢) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٩

(٣) المصدران السابقان .

عرضاً ، أو يفتحه عفواً ، ويستخلص الجواب من سابع سطر في الصفحة اليمنى ، فإن لم يسفر عن جواب واضح ، كانت دلالة الكلام على الخير نذيراً ، وعلى الشر بشيراً ، وربما استعاض البعض عن ذلك ، بإحصاء حرف الخاء ( خير ) والشين ( شر ) في الصفحة كلها ، ويستنبطون المطلوب من زيادة أحدهما على الآخر...!!<sup>(١)</sup> وروى الماوردي في أدب الدنيا والدين ، أن الوليد بن عبد الملك ، قد استفتى المصحف يوماً ، فكان فأله « وخاب كل جبار عنيد » ، فزق المصحف وأنشأ يقول :

تهدد كل جبار عنيد      فما أنا ذلك جبار عنيد  
إذا ماجئت ربك يوم حشر      فقل يا رب مزقني الوليد

وتقول الرواية إنه لم يلبث إلا أياماً يسيرة ، حتى قتل شر قتلة ، وصاب رأسه على قصره ، ثم على أعلى سور بلده<sup>(٢)</sup> !..

ولكن البعض لم يسلم بجواز التفاؤل بالقرآن . وصرح الإمام أبو بكر العربي في كتابه الأحكام في سورة المائدة بعدم جوازه ، ونقله القرافي عن الإمام الطرطوشي ، وقال اللميري ويقتضى مذهبنا كراهيته ، ولكن إباحه غير من عرفنا ابن بطة الحنبلي<sup>(٣)</sup> وإذا كان فتح الفأل من التنزيل ممنوعاً فكيف بغيره من كتب الأنبياء والأولياء والمشايخ<sup>(٤)</sup> . وإذا كان بعض المؤرخين يتردد في التسليم بالأحاديث النبوية التي تؤيد الفأل بكلمة تسمع عفواً ، ويتردد في قبول سندها كما أشرنا من قبل ، فإن جمهرة المفكرين كانوا يترددون في قبوله ، يقول ابن قيم الجوزية في دار السعادة - ويردد صداه غيره من المؤرخين - إن ضرورة التطاير وتأثيره لمن يخافه ويخشاه ويتغير منه ،

(١) ويعرض استخارة السجدة الشائعة . E. W. Lane, p. 267 - 8 (1)

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٨ (٣) حاجي خليفة ج ٢ ص ٦١

(٤) الفنوجي ص ٥٥٥

وأما من لم يبال به ، فإنه لا يتأثر منه أصلاً ، ولا سيما إذا قال عند المشاهدة أو السماع :  
اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك . اللهم لا يأتي بالحسنات  
إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك<sup>(١)</sup> - وفي الحق إن  
هذه ملاحظة قيمة طيبة ، يعرف قيمتها من كان له اتصال بالدراسات السيكولوجية في  
هذا المجال .

### صفة الزجر :

على أن الزجر لم يكن هيناً بهذه الصورة التي أسلفناها ، فليس كل امرئ بصالح  
لأن يكون زاجراً ، لأن هناك صفات ضرورية لا تتوافر إلا في القليلين ، وفي ذلك  
يقول ابن خلدون « وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند  
سنوح طائر أو حيوان ، والفكر فيه يعد مغيبه ، وهي قوة في النفس تبعث على  
الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع ، وتكون قوته المخيلة قوية  
فبيعتها في البحث مستعينة بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما ، كما تفعله القوة  
المخيلة في النوم وعند ركود الحواس ، تتوسط بين المحسوس المرئى في يقظته وتجمعه  
مع ماعقلته فيكون عنها الرؤيا<sup>(٢)</sup> فأين هذا مما أسلفناه .. وأين هو على وجه التحقيق  
من الفأل أو الزجر الذي يكون صدق لكلمة يسمعها المرء عفواً واتفاقاً ..! إن قيمة  
الوصف السالف تتضح إذا نحن ذكرنا ما تهيأ للفأل والزجر على هذا النحو الساذج  
من عراقة القدم ، وسنعود إلى مناقشة هذا وتفنيد الأمثلة السالفة ، عند ما نعرض  
لبیان موقفنا من فنون التكهن الصناعي .

(١) حاجي خليفة ج ٢ ص ٦١ وطاشكبري زاده ص ٣٠٠ والقنوجي ٥٥٦

(٢) ابن خلدون في المقدمة ص ٩٣

## علم أحكام النجوم

علم التنجيم :

اصطلح المسلمون - فيما يقول الأستاذ « نالينو » C. A. Nallino - على تسميته بعلم - أو صناعة - أحكام ( أو قضايا ) النجوم ، وقالوا علم ( صناعة ) الأحكام ، ومنذ القرن الثالث عشر لميلاد المسيح ، سماه البعض « علم النجامة » ولكن علم أو صناعة النجوم أو التنجيم ، يطلق على التنجيم أو علم الفلك أو على العاملين مما ، ويقال المشتغل بصناعة النجوم : الأحكامي أو المنجم ، وإن كان الأخير يطلق على الفلكي كذلك ، والتفرقة الدقيقة بينهما لم تحدث إلا في القرن الغابر ، وقد جرى أكثر الفلاسفة وأصحاب فهارس العلوم والكتب الجامعة ، على نهج أرسطو وأتباعه في تصنيف العلوم ، فاعتبروا التنجيم فرعاً من العلوم الطبيعية ، كالطب والفراسة والكيمياء وتأويل الأحلام ونحوه ، ولكن علماء الفلك والتنجيم وغيرهم من أمثال الفارابي وإخوان الصفا وابن خلدون ، قد جروا على نهج بطلميوس واعتبروا التنجيم فرعاً من العلوم الرياضية<sup>(١)</sup> والعلم الطبيعي والعلم الرياضي قسمان من أقسام الفلسفة ، ومن هنا جاء إقبال المشتغلين بالفلسفة - من أمثال الكندي - على التنجيم ، بل لقد أقبل على مزاولته أئمة الدين النزاعون للدراسات الفلسفية<sup>(٢)</sup> .

(١) نالينو في مادة « التنجيم » بدائرة المعارف الإسلامية - في نسخها العربية - وانظر

كتابه : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في العصور الوسطى من ١٨ - ١٩ بوجه خاص .

(٢) قارن مصطفى باشا عبد الرزاق في كتابه : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية من ٤٨ و ٢٢٠

صيران لهذا العلم :

يراد بعلم النجوم معرفة الاستدلال على حوادث الكون والفساد بالتشكلات الفلكية - أي أوضاع الأفلاك والكواكب<sup>(١)</sup>، ويتشعب إلى ثلاث شعب : أولاها علم الهيئة الذي يرمى إلى معرفة تركيب الأفلاك وكمية الكواكب وأقسام البروج وأبعادها وعظمتها وحركاتها وما يتبعها من هذا الفن ، ويبحث ثانياً في معرفة حل الزيجات وعمل التقويم واستخراج التواريخ وما شاكل ذلك ، أما ثالثها فهو علم أحكام النجوم ، وهو العلم الذي يرمى إلى معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوال البروج وحركات الكواكب على الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر<sup>(٢)</sup> والقسم الأول نظري والثاني عملي والثالث هو أحكام النجوم<sup>(٣)</sup> ، ويقرر إخوان الصفا في الرسالة السابعة ، بأن النجوم « معرفة كمية الأفلاك والكواكب والبروج وكمية أبعادها ومقادير أجرامها ، وكيفية تركيبها ، وسرعة حركاتها ، وكيفية دورانها وماهية طبائعها ، وكيفية دلالتها على الكائنات قبل كونها »<sup>(٤)</sup> وهذا - فيما لاحظ الأستاذ نلينو من قبل - يتفق مع التعريف السالف في معناه واشتماله على علم الهيئة وأحكام النجوم مما ، ولكن ابن سينا يجري مجرى الفارابي وأكثر فلاسفة الإسلام

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٦ وحاجي خليفة ج ٢ ص ٣٨١ والقنوصي ص ٦٧٢ والتبناوي ج ٢ ص ١٤٢٨ ، وفي مقدمة الكشاف ص ٤٤ ، ٥٠ - ٥١

(٢) إخوان الصفا : ص ٧٣ ( في الرسالة الثالثة وهي وقف على علم النجوم )

(٣) نلينو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في العصور الوسطى ص ٢٥ - ٢٦ وهو يشير إلى أن المقرئ قد نقل هذا النص حرفياً ( في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٧ من طبعة مصر ) من غير أن يشير إلى مصدره .

(٥) إخوان الصفا ج ١ ص ٢٠٣

من حيث إنهم لا يعتبرون أحكام النجوم من الأقسام الفرعية للحكمة الطبيعية ، كالطب والفراسة وتعبير الرؤيا وما أشبهه ، وعلى هذا يراد بأحكام النجوم البحث في دلالات الكواكب ... الخ . أى على ما يقع في مستقبل الأيام أو في حاضرها ، أو ما وقع في ماضيها<sup>(١)</sup> . وقد فرّع بعض المفكرين عـلم النجوم إلى أحكام النجوم - الذى أسلفناه الآن - وإلى علم النجوم التلميى وهو الذى يعد في العلوم ، وأما الأول فإنه يعد في القوى والمهن التى بها يقدر الإنسان على الإنذار بما سيكون<sup>(٢)</sup> ، وفرعه بعضهم إلى علم النجوم التلميى البرهانى وعلم النجوم الطبيعى ، ويراد بالثانى معرفة أحكام الكواكب وتأثيرها في عالم الكون والفساد ، وأول ما اشتهر به في الإسلام محمد بن إبراهيم ( الفزارى ) وكان يجرى على مذهب العرب ، وأعقبه محمد بن الجهم البرمكى ، أما من سلك مسلك المعجم من الفرس واليونانيين وغيرهم فهم ( يعقوب ) بن طارق وما شاء الله المهندي وغيرهما<sup>(٣)</sup> .

والذى يعنينا هو علم أحكام النجوم ، وهو لا يعتبر - وفقا لحده السالف - من أجزاء علم الهيئة ، كما يخرج من نطاقه علم الرمل والجفر لأنه لا يبحث عن أحوال النجوم<sup>(٤)</sup> وقد فرق المؤرخون بين النجوم وأحكام النجوم فقالوا إن الأول يعرف

---

(١) الفارابى فى إحصاء العلوم : ص ٤٣ ( نشرة زميننا الدكتور عثمان أمين )

(٢) نفس المصدر السالف ص ٤٣ - ٤٤

(٣) ابن صاعد الأندلسى ، فى طبقات الأمم ص ٨٠ - ٨١

(٤) التهانوى فى ص ٥٠ - ٥١ ولكن ابن خلدون يعد الرمل من فروع علم النجوم

وقد نقل عنه هذا الرأى الفنوجى فى أبجد العلوم - ص ٤٠ وذهب إلى هذا الرحالة « ابن » Lane وسنعرف رأيه بعد قليل .

بالحساب فهو من فروع العلم الرياضى ، وأما الدانى فيعرف بدلالة الطبيعة على الآثار فهو من فروع العلم الطبيعى (١) .

ويستخدم التنجيم بوجه خاص - فيما يشير « لين » في معرفة طوابع المواليد ، وتمييز أوقات الحفظ ونحو ذلك ، وكثيراً ما يستخدم للتكهن بالبرج الذى يتأثر به الإنسان ، وذلك بعملية حساب تقوم على القيم العددية لحروف اسم الفرد واسم أمه ، وكثيراً ما يُستغل هذا لمعرفة التوافق عند الإقدام على زواج ، وقد عرف « لين » أن علم الرمل الذى يبدو فى صورة علامات ترسم عفواً على ورق أو رمل ، ويزعم أهله أنه يكشف عن الماضى والحاضر والمستقبل - يقوم فى أصله على علم التنجيم (٢) .

### فى تاريخ التنجيم وتطوره :

شاعت النجامة منذ الماضى السحيق عند قدماء الشرقيين من أشوريين وكلدانيين ومصريين ونحوهم ، ممن مكنتهم طبيعة بلادهم وحياتهم من ملاحظة النجوم ومراقبة حركاتها (٣) . وقد ذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن آراء الهيلينيين ( التى كانت مزاجاً من التفكير اليونانى والروح الشرقى ) فى مجال التنجيم والرؤيا والسحر ونحوه ، قد أصبحت عربية إسلامية فيما ( يقول بكر Beker ) ، وأب غير هؤلاء يرون أن الأفلاطونية الجديدة هى التى مكنت لعلم التنجيم عند بعض المسلمين من أمثال إخوان الصفا ، إذ أن القضاء عند أهلها هو علم الله السابق بما توجهه أحكام

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦

(٢) E. W. Lane فى كتابه السالف الذكر ص ٢٧١

(٣) شيشرون فى الكتاب الأول فى الفقرتين الأولى والثانية والأربعين .

النجوم<sup>(١)</sup> وإن كان المتكلمون من معترلة وأشاعرة على اتفاق في إنكار هذا العلم الذي يؤدي إلى إنكار أن الله هو العلة الوحيدة والمباشرة لكل الأحداث<sup>(٢)</sup> .

وفي الحق إن مصادر التنجيم الإسلامي متباينة كل التباين ، وقد تتلمذ أهله على اليونان من أمثال بطلميوس وتوسر Teucer وأنتيوخس ، وأخذوا عن مصادر بهلوية وهندية ، وضمنوا مصنفاتهم ما كان شائماً في أرض الجزيرة والشام ومصر ، ومن هنا كان الخلط في الطرائق عند أمثال أبي معشر .

ولكن المسلمين يمتازون على من سبقوهم - فيما يقول الأستاذ نلينو - بأنهم بلغوا شأوا بعيدا في الحسابات ، إلى جانب جهودهم في التلفيق بين مختلف الطرائق ، وقد عرضوا هذه الحسابات في رسائل فلكية إلى جانب مسائل أخرى في حساب المثالثات الكرى « ووضع الحاسبون توصلا لهذه الغاية كثيرا من الجداول الرياضية المفصلة ، وهم يختلفون في هذه الناحية عن المنجمين اليونان والهنود الذين كانوا يقومون بحسابات مبتسرة ، وكانوا يتنكبون عن الاستبحار في الرياضيات المعقدة<sup>(٣)</sup> » .

ومن رأى الأستاذ نلينو - وهو حجة في هذا الصدد - أن العرب قد ظلوا على

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ١٤٦ ، وياقوت في طبعة مرجليوث ص ٣٦٠

(٢) أبو حيان التوحيدى ، المقابسات ص ١٢٤ وقد أوضح هذا بشيء من التفصيل جلد تسير Goldziher في مقاله عن موقف أهل السنة من علوم الأوائل ( ترجمة زمينا الدكتور بدوى في كتابه التراث اليونانى السالف الذكر ) وفي المقال معلومات طيبة عن التنجيم وموقف المسلمين منه ، وإشارات قيمة إلى مصادر هامة فيه .

(٣) نلينو في مادة التنجيم بالمصدر المذكور آنفا ، وانظر في التنجيم عند الاشوريين - ومنهم الكلدانيون - والمصريين ومن إليهم من القدماء ، الفقرة الأولى والثانية والأربعين من الكتاب الأول في العلم بالغيب ( شيشرون ) .

جهل بصناعة أحكام النجوم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض ، ويصرح بأنه لا يكاد يجد من هذه الصناعة شيئا في أعمار الجاهلية وأخبارها ، على وفرة ما يروى من اشتغال العرب بالكهانة والتميافة والزجر والطيرة وما يشبه ذلك من أنواع التفاؤل ، وإن كان العرب الذين استقروا بخارج جزيرتهم بعد أواسط القرن الأول ، قد قالوا بتأثير الكواكب في السعد والنحس على الأخلاق ، ونقلوا هذا عن الأمم الأجنبية التي سكنت بلادهم ، أما حرفة المنجم وصناعة أحكام النجوم عند العرب في القرن الأول للهجرة ، فإنه لم يعثر على ذكرها إلا في حكایتين ينفي صحتهما (١) ، وسنعرض لهما عند حديثنا على التنجيم في قصور الخلفاء .

ويرى « تالينو » أن الأمير خالد بن يزيد + ٨٥ هـ ( حفيد معاوية مؤسس الدولة الأموية ) هو أول من ترجم له كتب في الطب والنجوم والكيمياء ، وأن من المحتمل أن تكون كتب النجوم التي قيل إنها ترجمت له ، كتباً في أحكام النجوم لا في علم الهيئة (٢) .

ولا غرابة في إيفار العالم الإسلامي لأحكام النجوم على علم الهيئة ، لأن الناس من سلفيتهم مولعون بكل ما يثير الغرابة ويكشف عن آفاق المستقبل المحجب ، ولعل أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية ، هو « أحكام النجوم » المنسوب إلى هرمس ، والمظنون أن ترجمته كانت قبل انقراض الدولة الأموية بسبع سنوات ، وعند ما انقرضت هذه الدولة ( ١٣٢ هـ ٧٥ م ) واختلط العرب بالمهايك والوالي - وأكثرهم من الفرس - استيقظت نهضة كان من آثارها ، شفق الخلفاء بتلك الفنون (٣) - على ما سنعرف بعد قليل .

(١) تالينو : علم الفلك ص ٣٢٤ وما بعدها

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧ (٣) المصدر السابق ص ١٤٢ - ٣

وفي خلافة المنصور نقل أبو يعقوب البطريق ، كتاب الأربع مقالات - الذي وضعه بطليموس في صناعة أحكام النجوم ، وأثر الفرس في المسلمين عند بدء اهتمامهم بهذه الصناعة تأثيراً ملحوظاً ، فكان نوبخت والطبري من الفرس ، وشاعت الاصطلاحات الفارسية في كتب ملء الله (١) .

وقد أقبل المسلمون على دراسة هذا العلم ، إقبالا ملحوظا في نشاط خصومه وأنصاره معا ، وتبينه في كثرة ما كتب عنه ، وقد ذهب « بكر » Beker في مقاله السالف إلى أن مفكرى عصر النهضة قد أخذوا عن العرب التنجيم والعرافة الهيلينية ، كما تضمنها الكتاب المعروف « غاية الحكيم » وإن كان هؤلاء - فيما يرى - أعظم من المسلمين نفاذا إلى باطن الأشياء ورغبة في اكتشاف الحقيقة .

### طرق التنجيم :

في وسع المنجم المسلم أن يأخذ بثلاث طرائق كبرى لا يتجاوزها :

١ — طريقة المسائل : ويراد بها الإجابة على أسئلة تتصل بحياة الناس اليومية ، من الأخبار بغائب أو معرفة سارة أو استمادة مفقود أو نحو ذلك ، وهذه الطريقة أبسط الطرق وأشيعها .

٢ — طريقة الاختيارات : وهي اختيار الأوقات التي تلاءم القيام بعمل ما .

٣ — طريقة تحاويل السنين : وتقوم على أن الصورة السماوية في زمن المولد ،

تحدد طالع المولود بالدقة ، وقد اتبعها بطليموس ، وقد فصل الأستاذ « نلينو » في بيانها وبيان غيرها من طرق ثانوية عند المسلمين (٢) .

(١) المصدر السالف ص ١٤٦ و ١٨١

(٢) نلينو Nallino في مقاله السالف وانظره أيضا مادة Stars (Sun, moon) في الدين

الإسلامي في Ency. of Religion and Ethics

### علم التنجيم بين أنصاره ومضمره :

ولعل من الخير أن نبسط في تأريخنا لهذا العلم ، أدلة منكريه ورد مؤيديه عليها واحداً بعد واحد ، فإن ذلك أدعى إلى تحديد مكان هذا العلم في رهوس الفريقين معا :

انمقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم ، وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندي وإخوان الصفا ونجر الدين الرازي<sup>(١)</sup> . وقد اشتغل الكندي بالنجامة ، وحقق عايشه أبو معشر المنجم - فيما يروي صاحب الفهرست - وعرض السمودي في الجزء الأول لبيان آرائه في تأثير العالم بالأشخاص العلوية ، وبهذا ربط الحوادث الأرضية بحركات النجوم<sup>(٢)</sup> فلنعرض لموقف منكريه ومؤيديه :

قال منكره أن ليس في معرفة الكائنات قبل كونها صلاح لإنسان من الناس « لأن في ذلك تنقيصاً للعيش واستجلاباً للهم ، واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها »<sup>(٣)</sup> - ويبدط المنكرون ما يجنيه المشتغلون بالعلوم من وراء العطب والنحو والفقهاء والشعر والحساب والبلاغة والهندسة والهيئة ونحوها ، ثم يعقبون على هذا قائلين إن علم النجوم ليس كذلك ، فإن صاحبه وإن استقصى وبلغ الحد الأقصى ، في معرفة الكواكب وتحصيل مسيرها ، واقتنائها ورجوعها و... حتى

(١) المصدران السابقان الأستاذ ناليو وتفصيل هذا في المصدر الثاني .

(٢) مصطفى عبد الرازق باشا : فينصوف العرب والمعلم الثاني من ٤٢ - ٤٣ .

(٣) قارن إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ ، ج ٤ ص ٣٢٣ (مكرراً بالفاظه) وقارن هذا بالفقرة التاسعة من الكتاب الثاني (شيشرون) يفتح التشابه بين هذا الرأي واتجاه شيشرون الروماني .

إذا حكم أصاب ، فإنه لا يستطيع البتة قلب عين شيء ولا صرف أمر إلى أمر ولا نفي ملامة قد كتبت ، ولا دفع سمادة قد أجت وأظلت ، فالعالم الحاذق فيه المتناهي في حقائقه مضطر إلى الاستسلام للقدر ، فيتساوى بذلك مع أجهل الجهال - هذا على افتراض الصدق فيما يزعمه أهله<sup>(١)</sup> ، ولكن مؤيديه يردون قائلين إن الإنسان : « إذا علم ما يكون من حادث في المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها ، لا بأن يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحوز منها أو يستعملها كما يفعل سائر الناس ويستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار ، ولحر الصيف بأخذ الكفن ، والسنى القلاء بالأدخار ، ولمواضع الفتن بالهرب منها والبعث عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم » ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا الحوادث قبل كونها ، أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله ، والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع<sup>(٢)</sup>.

ومن وجوه الإنكار أن النورى وهو أحد الأئمة المجتهدين ( + ١٦١ هـ ) لقي المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حفظ قوى فى سهم الغيب والإخبار بأمور الحدثنان ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشتري ، وأنا أرجو رب المشتري ، وأنت تغدو بالاستشارة وأنا أغدو بالاستخارة فكم بيننا ؟<sup>(٣)</sup> ذلك أن المنجم إنسان ناقص الأصل زائد الفرع ، وزيادته لا ترفع

(١) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ١٢٠ - ١٢٣ وقارن الفقرة الثامنة فى الكتاب الثانى لشيخرون تعرف وجه التشابه بينهما .

(٢) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ وقارن الفقرة العاشرة من الكتاب الثانى فى شيخرون ، فبين هذا الرأى ومذهب الرواقية تشابه ملحوظ (٣) المقابسات ص ٩٢٣

نقصانه ، لأن النقصان بالطبع والكمال بالعرض ، والمتجهم بمعله يبارى الله وينازعه علمه ويتتبع غيبه<sup>(١)</sup> .

ولكن مؤيديه يقولون إن من نظر في هذا العلم وفكر في سعة هذه الأفلاك وسرعة دوراتها ، وعظم هذه الكواكب وبجيب حركاتها ، وأقسام هذه البروج وغريب أوصافها ، تشوقت نفسه إلى الصمود إلى الفلك<sup>(٢)</sup> والنظر إلى ما فيه ، وليس هذا ممكنا بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، ولكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يمتها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها ، استطاعت أن تصعد في لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت فلك القمر سائجة في قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة تارة من الكون إلى الفساد ، وتارة من الفساد إلى الكون ، وفي أقوال الأنبياء والحكماء ما يشهد بما تقول<sup>(٣)</sup> . والنظر في هذا العلم يعين على الترقى إلى ما هو أشرف وأجل ، فهو يذهب النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة<sup>(٤)</sup> .

وقيل في مهاجمته إن أحكامه وإن لم تبطل من أساسها ، فإنها لا تصح بأسرها ، وليس هذا بالهين اليسير<sup>(٥)</sup> ، وصحتها وبطلانها تتوقف على آثار الفلك ، وقد يقتضي

(١) المصدر السالف ص ١٣٣

(٢) أطلق العلماء كلمة العالم على كل ما في الوجود من كائنات ، وما يتصل بها من صفات وقالوا إنه ينقسم إلى عالم الأفلاك أي العالم العلوي وإلى عالم الكون والفساد أي العالم السفلي أو هو عالم الأركان أو العناصر الأربعة من هواء ونار وماء وتراب أعلى سطح تلك المحيط إلى منتهى مقعر سطح فلك الأنير ( فلك القمر ) ثم ما يلي الشواء ، وأما عالم الأركان من مقعر سطح فلك القمر إلى منتهى الأرض - وفوق تلك تقوم النفس الكلية التي تسرى قواها في أجسام العالمين جميعا - انظر إخوان الصفا ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠

(٣) إخوان الصفا ج ١ ص ٩١ وما بعدها .

(٤) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ وكرر هذا بألفاظه في باب السحر ج ٤ ص ٣٢٣ !

(٥) المتنايسات ص ١٢٦

شكل الفلك في زمان ما ، ألا يمسح من أحكام النجوم شيء ، وإن خاص أهلها على وقائهم ، وبلغوا إلى أعماقها<sup>(١)</sup> .

ولكن مؤيديه يقولون إن الصناعة لا تبطل ولا تكون أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطاء في استدلالاتهم ، فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق ، وإن أخطأ أهلها في بعض استدلالاتهم أو أكثرها ، لأن الله هو الذي نصب الأشخاص الفلكية وأجراها مجاريها ، وقد جعله الله معجزة للإدريس النبي ، « وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالة صحيحة ، وقد يصيب الأطباء ويخطئون في قضاياهم ، باستدلالاتهم التي نصبوها في أكثرها ، فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، والأدلة التي نصبها البارئ سبحانه وتعالى هي اختلاف حركات النجوم وأصباغ البول وتغير أحوال المريض للعامل ، وهكذا أيضاً الفقهاء والحكام ، وأهل الفتوى في أحكام الدين من الحلال والحرام ، قد يصيبون أو يخطئون في قضاياهم واستدلالاتهم التي نصبها لهم البارئ من آيات كتبه المنزلة . . . نخطوهم وزللهم لا يبطل العلم والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان بالإنسان لنقصه عن التمام »<sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت الحجج قد اشتدت على هذا العلم فإن ذلك لا يشير الشك في أمره ، فإن العلماء لا يشكون في علم وأدب تعلموه ، بقول المنكرين له والجاهلين به ، وكذلك الحال مع كل عاقل ، فإنه لا يترك عقيدته ومذهبه الذي نشأ عليه ، دون أن يتبين بطلانه وينكشف له عواره ، فإن دخول الشبهة على كل إنسان جائز وممكن ،

(١) المصدر السابق ص ١٣٤ - ١٣٥

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨ وقارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول في شيشرون ( التشابه ملحوظ بين المسلمين والرومان ) وقد أكد هذا المعنى في الفقرة الثانية والثلاثين والخامسة والستين من الكتاب الأول .

رغم قيام الحق ووضوحه<sup>(١)</sup> . وقد كانت أحكام النجوم من أمهات الخلاف بين الناس منذ كانوا ، والملماء في حكمها على ثلاثة أقاويل : فمنهم من يرى معتقداً أن للأشخاص الفلكية دلالة على الكائنات قبل كونها في هذه الأشخاص السفلية ، كما أن لها أفعالاً وتأثيرات كذلك ، ومنهم من يسلم بدلالاتها ولا يسلم بفعلها وتأثيرها ، ومنهم من ينفي التأثير والدلالة عنها نفياً قاطعاً ، ويقول إن حكمها حكم الجمادات والأحجار المطروحة في البراري والقفار ، ولكن مؤيدي النجوم يقولون إن منكري دلالاتها قد انتهوا إلى هذا لتركهم النظر في علم الأحكام ، وغفلتهم عن تعلمه وإعراضهم عن البحث فيه ، وأما الذين أبدوا دلالاتها فقد عرفوا هذا من طول التجارب وكثرة الاعتبار في مرور الأيام والشهور والأعوام الكثيرة ، أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن . وأما مؤيدو دلالاتها وأفعالها فقد اعتبروا النجوم ملائكة له وملاكاً لأفلاكه وسكاناً لسماواته ، وقد عرفوا ذلك بعد النظر في العلوم الرياضية ، وإحكامها بعد تعلمها والتدرب عليها بطول الزمان من الدهور والأيام ، ثم ارتقوا إلى معرفة العلوم الطبيعية ومنها إلى العلوم الإلهية ؛ ثم إلى علوم النجوم ونحوه ، وانتهوا إلى تسمية المؤثرات بروحانيات الكواكب في الكائنات ، والذين ذكروا أن للنجوم مع دلالاتها أفعالاً وتأثيرات في الكائنات التي تحت فلك القمر ، قد عرفوا ذلك بغير طريق أصحاب الأحكام ، وهو طريق الفلسفة الروحية والعلوم النفسانية والتأييد الإلهي والعناية الربانية<sup>(٢)</sup> وليس ذلك ببدع فإن علم النجوم جزء من علم الفلسفة<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السالف ج ٤ ص ٣٧

(٢) إخوان الصفا ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ ، ج ٤ ص ٣٦ - ٣٧

(٣) المصدر السالف ج ١ ص ١٠٨

وقد كان بطليموس يرى أن التأثيرات المشعة من الأجرام السماوية ، تجعل طبيعة « القابل » بمثابة لطبيعة « الفاعل » وسواء أسلمنا بهذا الرأي ، أم أذعنا لرأى أهل السنة ، فإننا على الحالين منظرهم إلى التسليم بأن الأجرام السماوية لا تكون فاعلة بالحقيقة في الحوادث ، وإنما هي مجرد دلالات عليها ليس إلا ، وتأثير النجوم مرهون بطبيعة كل منها ، وعمومها بالنسبة للأرض أو بالنسبة لغيرها من النجوم ، ولهذا تخضع حوادث العالم ، كما يخضع الناس لمزاج من كثير جدا من التأثيرات السماوية المتباينة المختلفة ، المعقدة المتناقضة إلى أقصى الحدود ، وليس عمل النجوم إلا فهم هذه التأثيرات والجمع بينها<sup>(١)</sup> ، ويقول الكندي إن الله قد صير بعض مخلوقاته علامات لبعضها الآخر ، فاعلة تفعل في مملوؤها آثار ما هي لديه علة ، وليس يؤثر المفعول المألوف في علة الفاعلة ، والنفس علة الفلك لا مملولة له ، فليس يؤثر الفلك فيها أثراً ، إلا أن من طباع النفس أن تتبع مزاج البدن ، إذا لم تجد شيئاً ..<sup>(٢)</sup>

ولكن المفكرين يردون على هذا قائلين إن أصحاب صناعة النجوم يزعمون أنهم يعرفون الكائنات في عالم العناصر قبل كونها ، لمعرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة ، والمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالتجربة ، وهذا أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن ، وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آحاد وأحقاب متطاولة ، يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم<sup>(٣)</sup> .

(١) نالينو في مقاله المشار إليه من قبل .

(٢) فارن مصطفى باشا عبد الرازق في « فيلسوف العرب » ص ٤٢ - ٣

(٣) ابن خلدون ص ٤٧٨ - ٤٧٩ التنوحي ص ٦٧٤

علم التنجيم بين الكواكب والنجوم والشمس والقمر :

وذهب بمض مؤيديه إلى أن معارف علم النجوم لا تنال بالعقل أبدا ، ومن بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة<sup>(١)</sup> لسبب السالف نفسه . ولكن منكريه يقولون إن الضعفاء من المشتغلين بصناعة النجوم يذهبون إلى القول بأن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالوحي ، وقد كفونا مؤنة إبطاله ، فإن من أوضح الأدلة على فسادها أن تعلم أن الأنبياء أبعده الناس عن الصنائع ، وأنهم لا يتعرضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون وحياً من الله ، فكيف يدعون استنباطها بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق<sup>(٢)</sup> .

فأما المتأخرون فيرون أن دلالة الكواكب على أحداث عالم الأركان دلالة طبيعية ، من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات المنصرية - كما ذهب بطليموس ومن تبعه من المتأخرين ، فإن مثل النيرين وأثرها في المنصريات ظاهر ليس في الإمكان إنكاره ، كفعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع ونحوه ، وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة ونحو ذلك ، وهو لا يعتبر التنجيم من القضاء الإلهي - أي القدر - إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن ، والقضاء الإلهي سابق على كل شيء ، ذلك ما يقول بطليموس وأشياعه ، ولكن من الحق أن نقول إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بجمالتها ، بل تشترك معها قوى

(١) النيزالي في المنقذ من الضلال ص ١٣٨ - ١٣٩

(٢) ابن خلدون ص ٤٧٩ والفنوجي ص ٦٧

أخرى فاعلة في الجزء المادى ، كقوة الأب على التوليد ونحوها ، فإذا عرفنا القوى النجومية عرفنا فاعلا واحدا من جملة أسباب فاعلة للكائن ، ذلك بالإضافة إلى أن العلم بهذه القوى النجومية يقترن به حدس وتخمين حتى يرجح الظن بوقوع الكائن ، وليس الحدس من علل الكائن ، وبغيره تصبح الصناعة ماثراً للشك ، وهذا كله على افتراض أن العلم بالقوى النجومية سيقع على سداده ولم تعترضه آفة . والاستدلال يؤدي بنا إلى القول بأن الفاعل هو الله ، وسنعرف حكم الشرع في إنكار النجوم بعد ؛ وبذلك تمهدم أحكام النجوم عقلاً وشرعاً - فيما يقول ابن خلدون<sup>(١)</sup> .

وإذا كان من الواضح أن أهل التنجيم يصابون إلى معلوماتهم بالاستدلال والنظر والحدس والعلم بقوى النجوم ونحوها ، كان من البين أن هذا لا يدخل في مجال الإدراك الغيبي - الذى عرفنا أنه لا يجيء اكتساباً أبداً ، وقد بلغ من صدق هذا الظن أن بعض مؤيدى التنجيم قد أعلنوا صراحة بأن المنجم لا يدعى إدراك<sup>(٢)</sup> الغيب .

وذلك بالإضافة إلى أن القائلين بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر ، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء ، مثل هؤلاء النجمين يستندون إلى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثيرات النجومية - كما عرفنا الآن ، ويكونون فى غير غيبة من الحدس ، ومدارك الغيب لا تكون بغير هذا أبداً<sup>(٣)</sup> - والقول بأن العلم بأحكام النجوم يجيء عن وحى وإلهام إلهى كما قال المتقدمون من أهل هذه الصناعة ، قد وجد من ينكره من أمثال ابن خلدون على نحو ما أشرنا من قبل .

(١) المصدر نفسه ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ والقنوجى ص ٦٧٤ - ٦٧٥

(٢) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦ (٣) ابن خلدون ص ٩٧

وليس ينبغي أن يحتج أهل هذه الصناعة بأن وجودها طبيعي للبشر بمقتضى مداركهم وعلمهم ، فإن الشر والخير طبيعتان قائمتان ليس في الوسع نزعهما من طبائع الناس ، ولكن هذا لا يمنع من السعي لاكتساب الخير ودفع أسباب الشر<sup>(١)</sup> ، ولكن قيل إن الزجر عن النظر في هذا العلم قد ورد لأصحاب النفوس الخبيثة والفقول النيئة ، التي لا يجوز لأربابها أن ينشئوا ربح الحكمة أو يتناولوا إلى غرائب الفلسفة ، وإباحة النظر إلى هذا العلم والتسليم بما قيل في حسناته ، إنما ورد من أجل الممتازين في عقولهم ونفوسهم معاً<sup>(٢)</sup> . على أنه إذا كان من الممكن - على طريق إجراء المادة - أن يكون بعض الحوادث سبباً لبعضها الآخر ، فليس ثمة دليل على كون الكواكب أسباباً للسعادة وعاللاً للنحوسة ، لا حساً ولا عقلاً ولا سمماً ولا شرعاً<sup>(٣)</sup> .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذها في قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء ، وقد ظل هذا النفوذ قائماً حتى القرن الغابر ، حين أتى عليه قيام الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيكو س + ١٥٤٣ بوجه خاص ، ومن أجل هذا ظل قائماً في البلاد التي لم تغزها الحضارة الغربية ، وإن افتقد جلاله الذي

(١) ابن خلدون ص ٤٨١ والتنجي ص ٦٧٧

(٢) المناقب لأبي حيان التوحيد ص ١٣٨

(٣) حاجي خليفة ج ٢ ص ٣٨١ وقد فصل فيه هذا الرأي ، وردد التنجوي صدى ما يقوله في ص ٦٧٣ ولعلنا نلاحظ تشابه كثير من أدلة تأييد هذا العلم وإنكاره معا في موقف أنصاره من الرواقية وخصومه من أتباع الأكاديمية الجديدة كما يظهر في كتاب شيشرون بتسميه الأول والثاني .

كان له في العصور الوسطى ، ومن هنا نلاحظ أن قضاة اليمن لا يزالون - فيما يذكر نلليو - يزالون صناعة أحكام النجوم إلى يومنا الحاضر (١) .

وفي الآثار الإسلامية وفرة من الأدلة تشهد بتسلسل التنجيم إلى قصور الخلفاء ، وأثره الملحوظ في تدبير الشؤون العامة والخاصة ، سياسية أو اجتماعية أو غيرها :

### التنجيم في قصور الخلفاء :

يقول ابن خلكان - في وفيات الأعيان - أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ، استدعى منجبا وقال له : هل ترى في علمك ملكا يموت ؟ قال المنجم نعم ولست هو ، لأن الذي يموت اسمه كليب ، قال الحجاج إنه أنا والله ، « بذلك سمعتني أمي » وكتب وصيته (٢) .

وقد كان جعفر المنصور - ثاني الخلفاء العباسيين - يدني المنجمين من حضرته ، ويستشيرهم في أموره ، وكان نوبخت الفارسي (٣) يصحب المنصور ، ولما ضعف عن خدمته طلب إليه هذا إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسير له ولده أبو سهل . ويروي المؤرخون - أمثال ابن أبي أصيبعة وأبي الفرج والقفطي - أن المنصور لما حج حجته التي توفي فيها ، رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين هم ببناء بغداد (١٤٥ هـ) وضع أساس المدينة في وقت اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله بن سارية ، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا في حصرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزاري والطبري

(١) نلليو في مادة التنجيم المشار إليها من قبل .

(٢) ولكن نلليو يرفض التسليم بهذه القصة - كما أشرنا من قبل - لأنها لم ترد في كتب التاريخ المفصلة ، ولأن التنجيم لم يكن معروفا عند المسلمين في هذا العهد ( أنظر نلليو : علم الفلك ص ٣٣١ )

(٣) يقول المسعودي في مروج الذهب ( ج ٨ ص ٢٩١ طبعة أوربية ) إنه كان بجوسيا وأسلم على يد المنصور .

من المنجمين<sup>(١)</sup> . وروى البيروني أن ابتداء البناء كان في الخامس والعشرين من ربيع الثاني ١٤٢ للهجرة ، وأن نوبخت هو الذي تولى اختيار الوقت الملائم ، وأن هيئة الفلك في ذلك الحين قد اتفقت على مثل هذا الشكل .

وقد روى أبو معشر المنجم ، عن ابن منصور وفئة من أقرانه في التنجيم ، أن المأمون قد طالب إليهم أن يأخذوا طالما لدعوى إنسان ، ومعرفة مدى الصدق في دعواه ، فأحكموا طالما وصوروه ، فوقعت الشمس والقمر في دقيقة واحدة في الطالع ، والطالع الجدى والمشتري في السنبلة ينظر إليه .. !! فقال جماعتهم إن ما يدعيه صحيح ، وقال ابن منصور : « إن تصحيح الذي يطلبه لا يصح ولا يتم له ولا ينتظم ... لأن صحة الدعوى من المشتري أو تثليث الشمس من تسديدها ، إذا كانت الشمس غير منحوسة ، وهذا الحال هبوط المشتري ، والمشتري ينظر إليه نظر موافقه ، إلا أنه كاره لهذا البرج ، والبرج كاره له ، ولا يتم التصحيح والتصديق ، والذي قالوا من حجة زهرية عطاردية ضرب من الخرقرة والتزويق والحداع ، فأثنى عليه المأمون وأنبأهم بدعوى الرجل في النبوة ، وما زال به حتى كف عن دعوته<sup>(٢)</sup> .

على أن كتب التاريخ تشهد بأن الخلفاء والحكام لم يكونوا على اتفاق بصدد الاعتقاد في صدق المنجمين ، فالسمودي يروى عند وصف وقعة مسكن بين عبد الملك ابن مروان ومصعب بن الزبير عام ٧٢ هـ ، أن الأول كان معه منجم مقدّم ، وقد أشار على عبد الملك ألا يحارب له خيل في ذلك اليوم ، فإنه منحوس ، وليكن حربه بعد ثلاث ، يُصَبُّ نصرًا ، فبعث محمد إلى أخيه عبد الملك يقول « وأنا أعزم على نفسي

(١) اليعقوبي في البلدان ص ٢٣٨ طبعة ليدن الثانية عام ١٨٩٢ م

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٢٥ - ٦

لأقناني ولا ألتفت إلى زخاريف منجمك ، والمحالات من الكذب ، فقال عبد الملك  
للمنجم ولن خضره ، ألا ترون ! ثم رفع طرفه إلى السماء وقال اللهم إني مصعبا  
أصبح يدعو إلى أخيه وأصبحت أدعو لنفسى ، « اللهم انصر خيرنا لأمة محمد »  
واقتل محمد وأبلى ولكنه قتل<sup>(١)</sup> ...!

وإذا كان نلينو يأبي التسليم بهذه القصة<sup>(٢)</sup> . استناداً إلى رأيه السالف الذكر ،  
فإن مجرد رواية المسعودي لها ، تحمل الدلالة على أن التنجيم لم يكن موضع تسليم  
وإذعان عند الجميع .

### فروع النجوم :

حسبنا هذا مما قيل في علم أحكام النجوم ، وقد فرعه بعض مؤرخيه إلى علم  
الاختيارات ، والرمل والقرعة والطيرة<sup>(٣)</sup> ولا يسلم بعضهم بهذا التفريع .  
وشبيهه بعلم النجوم في زعم أصحابه ، إدراك الغيب عند أهل الرمل الذي استنبطه  
لذلك قوم من العامة ، وأقاموه على أوضاع تحكيمية وأهواء اتفاقيه ، ونسبوه إلى  
النبوات القديمة ( دانيال أو إدريس ) . ثم أهل حساب النيم الذين زعموا أنهم  
يعرفون عن طريقه الغالب والمغلوب في الحروب ، ثم أصحاب الزايرجه - ولا سيما  
تلك التي تنسب إلى محمد السبتي ، من أعلام متصوفة المغرب في أواخر المائة السادسة ،  
ولا ينكرها بعض المفكرين - استناداً إلى ما فيها من تناسب ، هو السر في الحصول  
على المجهول من المعلوم كما يحدث عند أهل الرياضة ، ولهذا نسبت إليهم ، ولكن

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٥ ص ٢٤٤ - ٦ طبعة أوربية .

(٢) نلينو : علم الفلك ص ٣٣١

(٣) ابن خلدون ص ٩٧ وقد فرعه « الفنوجي » إلى مثل ما أسلفناه .

الذين يقولون هذا يابون اعتبارها — وغيرها مما ساف الآن — من أدوات الإدراك النيبى ، لأن النيب لا يدرك صناعة وبضاعة كما قلنا من قبل (١) .

وقد أورد « لين » Lane صورة زايرة يستخدمها المسلمون عند التردد في الإقدام على عمل أو الإحجام عنه ، وتتأخذ في مربع يرسم ويقسم إلى مائة خانة صغيرة ، يكتب في كل منها حرف من الحروف كيفما اتفق ، وقبل الإقدام على استئتمائها يقرأ الإنسان الفاتحة ، ويمقب عليها بالآية التاسعة والحسين من سورة الأنعام « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ... » ثلاث مرات ، ثم يضع أصبعه عفوياً على إحدى خانات الجدول ، ويسجل الحرف الذى يقع عليه أصبعه ، ثم يدون الحرف الخامس الذى يابيه ، ويكرر تدوين كل خامس حرف يجىء بعد ذلك ، حتى يصل إلى الحرف الذى بدأ به ، ومن مجموع هذه الحروف — الخوامس — وهى عندهما بالطبع عشرون ، يتألف الجواب ..! وقد أجرى « لين » هذه التجربة فى جدول فى كتابه ، واستخلص جواباً مقولاً ، ولكنى أجريت هذه التجربة بنفس الطريقة التى رسمها ، فكان مجموع الحروف بترتيبها السالف ، لا يحمل معنى مقولاً ..!! ويقول « لين » إن أحب الزايرات عند المسلمين أكثرها تمقيداً ، وأن عملياتها تعتمد على حساب أحكام النجوم (٢) .

لعل من الخير ألا نفرع من الحديث عن أساليب التنبؤ دون أن نعرض فى شيء من الإيجاز لموقف مفكرى الإسلام من علمى الفراسة والسحر ، لأن كليهما قد تشعب عند بعض أهله ومؤرخيه حتى شمل التكهن بالغيب ، وقد عنى المسلمون بهذين العلمين تأييداً وإنكاراً ، ولهذا لزم الحديث عنهما معا :

(١) ابن خلدون ص ٤٨١ والتقوى ص ٦٧٧

(2) E. W. Lane, Modern Egyptians p. 266-7

## علم الفراسة وأشباهها

اعتبر بعض المؤرخين<sup>(١)</sup> العرافة من فروع الفراسة ، ويكاد ينعقد الرأي على أن العرافة قد سمخرت لمعرفة الغيب ، وإن رفض جمهرة رجال الشرع ومن ذهب مذهبهم التسليم بصحتها ، واعتبر البعض السكينة من فروع العرافة ، كما أسلفنا الإشارة من قبل ، وإذا تخطينا الاضطراب في التصنيف والتفريع عند هؤلاء المفكرين ، لاحظنا أن بعض كبار أهلها ومؤرخيها يوسع في نطاقها حتى تشمل التكهن بالغيب - كما سنعرف الآن .

### صاحبها وآفاقها :

والأصل في الفراسة أنها العلم الذي يستعين بما ظهر من أحوال الناس وهيئتهم من ألوان وأشكال وأعضاء - على معرفة ما خفي من أخلاقهم وطباعهم ، أو هو في الجملة الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن<sup>(٢)</sup> وبروا وجوده بقولهم إن المزاج إما أن يكون النفس أو آلة لها في أفعالها ، وعلى كلا التقديرين السالفين لا بد أن يكون الخلق - ما ظهر منه وما بطن - تابعا للمزاج ، وإن صح هذا كان الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن ، جاريا مجرى الاستدلال بمحصول أحد المتلازمين على

(١) القنوجي ، أجدد العلوم ج ١ ص ٤٠

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣ وحاجي خليفة ج ٢ ص ٧٢ والقنوجي ص ٥٥٦ -

حصول الآخر ، ولا شك أنه نوع من الاعتبار صحيح ، وبؤيده الكتاب والسنة والعقل جميعا ، على نحو ما أبان أهل العلم ومؤرخوه<sup>(١)</sup> .

### تفريع الفراسة :

ولكن بمض مؤرخيه قد شطروه شطرين : أحدهما يحصل بالتجربة التي دلت على أن الظاهر ينبيء عن الأخلاق الباطنة<sup>(٢)</sup> ، فهو علم يقيى الأصول ظنى الفروع<sup>(٣)</sup> وثانيهما الفراسة الشرعية التي تحصل بنور اليقين بوساطة تزكية النفس عن الأخلاق الرديئة ، وتصفية الغلب عن الصفات الذميمة ، حتى ينظر بنور الله فيكون الله بصره وسمعه ، إن الله لا يخفى عليه شيء ، لا فى الأرض ولا فى السماء<sup>(٤)</sup> ، وفى هذا النوع من الفراسة يقع فى القلب خاطر يحدد حال الإنسان وصفته ، دون الاستعانة بعلامة جسمانية أو إشارة محسوسة ، والسبب فيه ما ثبت من أن جواهر النفوس الناطقة مختلفة بالماهيات ، فمنها ما يبلغ غاية الإشراف والتجلى عن الملائق الجسمانية ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وكما أن النفس تقوى على معرفة الغيوب إبان النوم ، فكذلك النفس المشرقة الصافية قد تستطيع معرفة الغيب حال اليقظة ، وتختلف مثل هذه النفوس كما وكيفما<sup>(٥)</sup> وهكذا تسلمت الفراسة إلى ميادين التكهن بالغيب ، وأيدوها

---

(١) فخر الدين الرازى فى كتابه الفراسة ص ٤ - ٦ ( وقد نشره زميلنا الدكتور يوسف مراد مع ترجمته إلى الفرنسية والتبديل له بمقدمة علمية قيمة ) وفى التهانوى ج ١ ص ٤٤ ، وج ٢ ص ١١٢٣ عرض للرأى السالف فى صلب الكلام .

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣ (٣) الرازى ص ٧

(٤) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣

(٥) الرازى فى الفراسة ص ٦ ، والتهانوى فى كشفه ج ٢ ص ١١٢٣

بآيات الله وأحاديث الرسول وشواهد العقل ، وقد قال النبي اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وقوله كان قبلكم من الأمم محدثون ، فيه إشارة إلى الفراسة الطبيعية - وهي التي فطر الله النفوس عليها ، فالفراسة الشرعية هي معاينة المغيبات بالأنوار الربانية ، فن راقب أحواله وأنفاسه ، وتجنب المعاصي - ما صغر منها وما كبر ، وتخلق بالأخلاق النبوية وتخلق بالآداب المصطفوية ولم ير خيرا ولا شرا ولا نفما ولا خيرا إلا من الله ... كانت فراسته كالشمس تسطع أنوارها ، ولم ينطق إلا صدقا وحقا<sup>(١)</sup> وعلى هذا فن معانى الفراسة اطلاق القلب على مجاهل الغيب بنور من الله<sup>(٢)</sup> وهذا اتجاه صوفي في تفسيرها<sup>(٣)</sup> وعلى هذا فالفراسة إما أن تكون قائمة على مظاهر من أحوال البدن ، ويجرى في هذا النوع التعليم والتعلم ، وإما أن يقوم الحكم فيها على مجرد القوة الحدسية ، وتلك هي فراسة الأنبياء وأكابر الأولياء<sup>(٤)</sup> .

قيل أن رسول الله يقول : « كان فيمن قبلكم محدثون وأنه لو كان أحد فعمر ابن الخطاب ، والمحدث المصيب في ظنه وفراسته كأنه حدث بالأمر - فيما يروى طاشكبرى زاده<sup>(٥)</sup> أو هو الملميم الذي ياتي في نفسه الشيء ، فيخبر به حدسا وفراسة فيما يقول ابن الأثير<sup>(٦)</sup> . وقد كان عمر يقول « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » وتروى في أصل فراسته روايات « قد يصدق منها القليل ، وتسرّب المبالغة إلى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها ، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة » فمن ذلك أنه أبصر أعرابياً نازلاً من جبل ،

(١) طاشكبرى زاده ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ (٢) التبتاوى ج ٢ ص ١١٢٣

(٣) في الرازي ص ٧ وفي التبتاوى ج ٢ ص ١١٢٣ ما يؤيد هذا

(٤) الرازي ص ٧ ولم يعن الرازي في كتابه إلا بالصنف الاول وقد شرح فيه كل مالا بد

من معرفته . (٥) مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٢

(٦) النهاية في غريب الحديث ج ١ ص ٢٤٠

فقال هذا رجل مصاب بولده ، قد نظم فيه شعراً لو شاء لأسممكم ، ثم سأل الأعرابي :  
من أين أقبلت ؟ فقال من أعلى الجبل ، فسأله : وما صنعت فيه ؟ قال أودعته وديعة لي ،  
قال وما وديمتك ؟ قال بنى لي هلاك فدفتته ، قال فأسممنا مرثيتك فيه ، فقال وما يدريك  
يا أمير المؤمنين ، فوالله ما تفوهت بذلك ، وإنما حدثت به نفسي ؛ ثم أنشد أبياتاً  
ختمها بقوله :

فالحمد لله لا شريك له      في حلمه كان ذا وفي قدره  
موتاً على المباد فما      يقدر خالق يزيد في عمره

فبكي عمر حتى بل لحيته ثم قال : صدقت يا أعرابي ..! (١)

ومثل هذا يقال في أبي بكر الصديق ، وقد روى عنه صاحب «الامع في التصوف»  
شواهد تنبيء بصدق فراسته (٢) .

والحديث عن الفراسة ، يجرنا إلى الحديث عن طرق أخرى لإدراك ضروب من  
الغيب ، إذ اعتبرت هذه الطرق عند بعض المؤرخين من فروع الفراسة (٣) ، وإن  
رفض بعضهم التسليم بذلك (٤) ، ولنبدأ بالحديث عن :

### قيافة الأثر والبصر :

وتسمى قيافة الأثر بالميافة أحياناً ، وهي القدرة على معرفة الهراب من الناس ،  
والضوال من الحيوان بتتبع آثار أقدامها وأخفافها وحوافرهما في الطرق القابلة للأثر ،

(١) العقاد : عبقرية عمر ص ٣٤ وقد ذكر له مثاليين آخرين .

(٢) أبو نصر السراج الطوسي : الامع في التصوف ص ١٢٣ من نشرة نيكلسون .

(٣) كالفنوجي في أنجد العلوم ج ١ ص ٤٠ (٤) الرازي ص ١١ - ١٧

ويكون هذا بقوة القوة الباصرة والتمحيية والحافظة<sup>(١)</sup> . وأما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات أعضاء الإنسان على الاشتراك في النسب والولادة وسائر وجوه الأخلاق والأحوال ، وقد اشتهر في هذا العلم بنو مدلج وبنو لخب ، وهو يعتمد على قوة القوة الباصرة والحافظة ، فينشأ عن طبيعة في أصحابه ، ولا يجيء تعاماً واكتساباً ، ومع هذا فهو حدس وتخمين ، لا استدلال ويقين ، وإذا كان الشافعي قد سلم به ، فإن أبا حنيفة قد أنكره<sup>(٢)</sup> .

### نماذج من قيافة الأثر :

وقد روى المسعودي أن بين أرض مصر والشام ، قوماً من العرب يتناول الإنسان من ثمر نخلاهم ، فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه ، فإن رأوه بمد مدة عرفوا أنه الآخذ لثمرهم ، ولا يكادون يختلفون في ذلك ..! وقد قفت القافمة بقريش حين خرج النبي وأبو بكر إلى الغار حتى أتت بابه ، على حجر صلد وصخر أصم وجبال عالية لا رمل عليها ولا طين ولا تراب تظهر فيه الأقدام ، حجبتهم الله عن نبيه بما كان من نسج المنكبوت وما سفت إليه الريح<sup>(٣)</sup> ، وحر القائف وقال ها هنا تنتهي الأقدام ، والذين معه « لا يرون على الصلد ما يرى ولا على الصوان ما يشاهد ، وأبصارهم سائمة والآفات عنها مرتفعة والمواقع زائلة »<sup>(٤)</sup> .

---

(١) الرازي : الفراسة ص ١٢ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٩ والتقوحي ص ٥٤٩ وحاجي خليفة ج ٢ ص ٤٤ والأبشيبي ج ٢ ص ١٠١ وما بعدها  
(٢) حاجي خليفة ج ٢ ص ١٢٥ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٠-١ والرازي ص ١٢-١٣ وانظر الأبشيبي ج ٢ ص ١٠١ وما بعدها .  
(٣) التمس تحقيق ذلك في حياة محمد لـدكتور هيكل باشا ص ٢٠٨ طبعة ثانية والأبشيبي ج ٢ ص ١٠١-٢ (٤) المسعودي : ج ٣ ص ٣٤٢ - ٤ طبعة أوربية .

وقيل إن أولاد نزار بن معد الأربعة كانوا في طريقهم إلى ملك نجران ، فأروا أثر بغير في مغارة ، فقال أحدهم إنه لأعور ، وقال ثانيهم إنه لأبتر - مقطوع الذنب - وقال ثالثهم إنه لأزور - معوج الصدر - وقال رابعهم إنه لشروء...! ثم لقيهم صاحب البعير وسألهم عنه ، فكرر كل منهم الوصف الذي ذهب إليه من قبل ، وأيقن الرجل بصدق ما قالوا ، فطلب إليهم أن يدلوه عليه ، فقالوا : والله ما حسسنا لك ببعير ولا رأينا...! فتبعهم الرجل حتى إذا بلغوا الملك ، صاح الرجل من وراء الباب : أيها الملك لقد أخذ هؤلاء بعميري ، ثم أقسموا بأنهم لم يروه ، فدعا به الملك وسأل ضيوفه عن أمره ، فقال الأول رأيت البعير مجتهداً في رعي الكلاً من شق لحسه ، والشق الآخر واف كثير الالتفاف لم يمسه ، فقلت إنه أعور . وقال الثاني رأيت يرمي ببعره - رجيعه - مجتمعا ، ولو كان ذا ذيل لفرق هذا الرجيع بتجريك ذنبه ، فقلت إنه أبتر ، وقال الثالث رأيت أثر إحدى يديه ثابتا والآخر فاسدا فعملت أنه أزور . وقال الرابع : رأيت يرمي الشقة من الأرض ثم يتمداها فيمر بالكلاً الملتف الغض فلا يأخذ منه ، حتى يأتي ما هو أرق فيرمي فيه ، فعملت أنه شروء...! فقال الملك صدقتم ، وقال للرجل التمس بعيرك<sup>(١)</sup> .

### قيافة البسر :

أما الآخذون بقيافة البشر ، فيقولون إن الأشباه تنزع ، ولا يجوز أن يمنع التشابه بين الولد وأبيه أو أحد من أهله ، من جهة من الجهات ، وقيل إن في الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها<sup>(٢)</sup> ، ومن هنا كان نظر القائف إلى

(١) المسعودي ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٢ طبعة أوربية وقد عقب بذكر قصة أخرى بين فيها صدق الفراسة عند هؤلاء . (٢) المصدر نفسه ص ٣٣٣ وانظر التتويج ص ٥٨٦ - ٥٨٧

القدم ، لأنها نهاية الشكلي وغاية الهيئته ، وقد يخالف الولد أباه في كنه أفعاله ومظاهر خلقه ، ولكنه في الأغلب يوافقه في القدم<sup>(١)</sup> .

ومن الأمثال التي ترد في معرض الحديث عن الاستدلال بتركيب الإنسان على أخلاقه ، أن تلامذة سقراط - فيما يقول صاحب تاريخ الحكماء - قد أرادوا أن يختبروا فراسة أقليمون ، فقدموا إليه صورة دقيقة رسموها لأستاذهم ، فلما تأملها وأمعن فيها ، قال - وهو لا يدري من هي - هذه صورة رجل يحب الزنا ، قالوا كذبت ، فإنها صورة بقراط ، فقال لا بد لعمري أن يصدق فاسألوه ، فلما رجعوا إلى أستاذهم قال صدق أقليمون ، فإنني أحب الزنا ولكني أملك نفسي وأضبط ماني من هوى جامع<sup>(٢)</sup> .

ولكن هذا العلم مشار للشك عند بعض المفكرين ، لأن الناس يتشابهون في حد الإنسانية ونحوه من الحدود ، ويفترقون في غير هذا من الصور ، وليس وجود الأغاب من الأشباه ، مما يوجب إلحاق الشبه بشبهه ، دون أن يخالف ، من حيث أوجيته فضية العقل للخلاف والتباين ، والذين أذعنوا للتسليم بقيافة البشر من أهل الشريعة وفقهاء الأمصار ، استندوا إلى تعجب النبي منها ، وتصديقه محرراً المدلجى ، والذين أنكروها من فقهاء الأمصار ، استندوا إلى الدلائل الدالة على فساد الحكم فيها ، وعلى أن النبي الحق ولداً بأبيه مع عدم التشابه بينهما ، وبحجة أن العرق قد ينزع ، وأنباء الإبل تشهد بصحة ذلك<sup>(٣)</sup> .

(١) المسعودى ج ٣ ص ٢٣٨

(٢) حاجي خليفة ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦ والقنوجى ٥٨٦ - ٧

(٣) المسعودى ج ٣ ص ٣٣٣ - ٥

## أسباب الفراسة :

ويدخل في هذا الباب محاولة استكشاف الأعمار في طولها أو قصرها ، وما ينتظر الإنسان من سعادة أو شقاء ، وثناء أو عدم ، من الدلالات التي تحملها الخطوط الغائمة في الأكتف والأقدام والجيء ، استناداً إلى ما بينها من تقاطع وتباين وطول وعرض وقصر ، وما يفصل بينها من فرج متسمة أو ضيقة ، ويسمون هذا بعلم الأسارير<sup>(١)</sup> . ومعرفة أحوال العالم الأكبر من حروب وخصب وجذب ، من خلال الخطوط والأشكال التي ترى في أكتاف الضأن والمز إذا قوبلت بشمع الشمس ، ويسمون هذا بعلم الأكتاف . وقيلما يحرص أهله على معرفة الأحوال الجزئية للإنسان بالذات ، ولكنهم يحاولون معرفة ما يستور العالم من غلاء ورخاء وحروب ومحوها ، بأخذ ألواح الكتف قبل طبعه ، وإقامتها على الأرض أولاً ، ثم النظر فيها والاستدلال بأحوالها من الصفاء والكدر والحرة والحضرة على الأحوال الجارية في العالم . وقد ردَّ البعض هذا العلم إلى الإمام علي بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> ، ولكن مثل «علي» في تقواه وفضاه ، وورعه وذكائه ، لا يشتغل بمثل هذه العلوم ، وقد نهى وشدد النهي عن استطلاع الغيب بمثل هذه الأساليب<sup>(٣)</sup> ، ومن قبيل هذا علم الاختلاج الذي يبحث في كيفية دلالة الاختلاج في أعضاء الإنسان - من الرأس إلى القدم -

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٨ والتقوى ج ٣١١ والرازي ص ١١

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٩ وحاجي خليفة ج ١ ص ١٠٤ والرازي ص ١٢

(٣) وما أصدق العقاد حين يقول في التعقيب على نسبة علم الجفر إلى الإمام علي « ومن المحقق الذي لا خلفة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزيج وغارات النار وما إليها ، هي من مدخول الكلام عليه وفي إضافة النسخ إلى الكتاب بعد وقوع الحوادث بزمن قصير أو طويل » (عبقرية الإمام ص ١٧٧ طبعة أولى) .

على ما ينتظر أن يصيبه من خير أو شر ، وإن كان عند مؤرخيه عالما لا يوفق فيه لضعف دلالاته وغموض استدلاله<sup>(١)</sup> .

وقد اقتضت حياة الترحال عندهم ، التعرف إلى أحوال الأمكنة - من غير دلالة على هذا - بالآمارات السماوية تارة والأرضية أخرى ( كشم رائحة التراب في كل بقعة ) وأطلقوا على هذا علم الاهتداء بالبرارى والتفاز ، فساعدهم هذا على تسيير القوافل على هدى وبصيرة من غير تيه أو ضلال<sup>(٢)</sup> .

ومن قبيل هذا معرفة استنباط المياه من الأرض عن طريق الآمارات الدالة على وجودها ، ومن قربها أو بعدها ، بشم رائحة تراب منها أو رؤية نبات أو حيوان معين ، ويكون هذا بتوافر الحس الكامل والتخيل القوى ، وقد أطلقوا على هذا علم الريافة<sup>(٣)</sup> . ويشبه هذا علم الاختيارات<sup>(٤)</sup> الذى ينصب على البحث فى أحكام كل وقت وزمان من الخير والشر ، ويحدد الأوقات التى ينبغى الاحتراز فيها عن مزاولة الأمور أو يستحب فيها الإقدام عليها<sup>(٥)</sup> . ومثل هذا يقال فى علم القرعة<sup>(٦)</sup> وعلم نزول الغيث . وعلم الشالات والخيالان والجفر والجامعة والزايجه والرمل وغيرها<sup>(٧)</sup> وحسبنا الآن أن نشير إليها موجزين . وسنعود إلى التعليل على هذه العلوم ونماذجها السالفة عندما نعرض إلى بيان موقفنا من التكهن الصنعى .

- 
- (١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦ والقنوجى ص ٢٩٤
  - (٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩١ وحاجى خليفة ج ١ ص ١٣٤ والقنوجى وغيره
  - (٣) الرازى ص ١٥ وكذلك حاجى خليفة ج ١ ص ٤٥٢ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٢ وانظر فى المصدر الأول ص ٧٣ والقنوجى ٣٥٢ فى استنباط المياه والمعادن
  - (٤) اعتبره ابن خلدون فى مقدمته ص ٩٧ والقنوجى ص ٤٠ من فروع النجوم .
  - (٥) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦ والقنوجى ص ٢٩٥
  - (٦) التهانوى ج ٢ ص ١١٩٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ١٠٦ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٩ والقنوجى ص ٥٨٤
  - (٧) تنظر فى هذه العلوم طاشكبرى زاده وحاجى خليفة والقنوجى والرازى والتهانوى وغيرهم

## علم السحر

أدرك الاضطراب تعريف السحر وتحديد آفاقه - كما أدرك الفراسة من قبل -  
واتسع معناه عند البعض حتى شمل ميادين التكهن بالغيب ، رغم أن مؤرخيه ليسوا  
على اتفاق في تحديد موضوعه :

موضوعه :

تبدو مظاهر هذا الاختلاف في تعريف السحر عند باحثيه ، فأما أهل الفقه فقد  
نظروا إليه باعتبار عملاً يقترب به المرء من الشيطان ، ومعرفة تفاد من الجن ، وأما  
الحكماء فالأرجح عندهم أنه الإتيان بخارق ، عن مزاولة قول أو فعل محرم في الشرع ،  
أجرى الله سنته بحصوله ابتلاء<sup>(١)</sup> ، وفي هذا الاتجاه روح إسلامي واضح ، والواقع  
أن الفلاسفة قد أقاموا السحر وحددوا آفاقه بشكل أوضح من هذا ، إذ قالوا إن  
السحر والطلسمات من آثار النفس البشرية ، ودلوا على صحة هذا بأن للنفس  
آثاراً في البدن تجرى على غير الجرى الطبيعي المؤلف ، وتسير على غير أسبابه  
الجسمانية ، وقالوا إن الساحر لا يحتاج إلى ممين لكي يؤثر في غيره - كما هو الحال  
في صاحب الطلسمات ، والسحر اتحاد روح بروح ، وليس ائتلاف روح بجسم

(١) التهانوي في كشفه ج ١ ص ٦٤٨

— كالمسلم — وهو — السحر — عند الفلاسفة فطرى لا يجسء اكتساباً ، إن صاحبه مفطور على تلك الجبلة الخاصة بذلك النوع من التأثير<sup>(١)</sup> .

ولكن بعض المفكرين قد وسّع معناه حتى شمل آفاقاً جديدة غير الآفاق التي أسلفناها ، فقالوا إن من السحر ما هو بيان وكشف عن حقيقة الشيء ، وإظهاره بسرعة العمل ودقته ، « ومنه الإخبار بما يكون قبل كونه ، والاستدلال بعلم النجوم وموجبات أحكام الفلك<sup>(٢)</sup> » . فاعتبروا النجامة سحراً ، وقال بعضهم إن الساحر قد يقوم بإخبار نبي بمينه ، فيبعث النبي حياً يجيب عما يسأل عنه من شئون الغيب ، وتشهد بهذا قصة « طالوت » ملك اليهود ، ونبيهم « شمویل » الذي بعثه الساحر حياً وأنبأ الملك عن عاقبة أمره ، وغضب الله على بني إسرائيل<sup>(٣)</sup> .

ذلك أن أهل فلسطين قد ساموا اليهود الموان ألواناً ، حتى إذا كان نبيهم « شمویل » — صمويل — استوحى الله في اختيار ملك يتولى قيادتهم في قتال أعدائهم ، فكان « طالوت » فأذعنوا لطاعته بمد تردد ، فتخير منهم من لا تشغله شئونه الخاصة عن محنة القتال ، ومضت هذه القلة تحت رايته إلى ملاقاتة الأعداء ، الذين كثر عديدهم حتى أثار الفزع في قوم طالوت ، ولكن الله أجاب دعاء هؤلاء وهياً لهم النصر المبين على القوم الكافرين<sup>(٤)</sup> ، وكان مصرع كبير أعدائهم « جالوت » على يد — داود عليه السلام — مع حداثة سنه وقراءة جسمه ، ولكن طالوت

(١) ابن خلدون ص ٤٣٧ — ٤٣٨ وقد فصل الحديث فيما أجمعناه .

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٤٧ (٣) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٣٠

(٤) اقرأ هذه القصة بالتفصيل في التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي

ج ٢ ص ٢٩٣ — ٣٠٤ في تفسيره للآيات ٢٤٦ — ٢٥١ من سورة البقرة (طبعة مصر

الأولى عام ١٣٠٨ هـ)

فيا تقول كتب الأخبار التي تجرى مجرى التوراة عند اليهود — لم يرع الله في معاملة  
المغلوبين ، نخف هؤلاء لقتاله ، وأزعجته كثرة عددهم ، فطلب إلى خاصته أن يأتوه  
بساحر يسأله عن عاقبة أمره — وكان شمویل قد قضى نحبه — فجاءوه بساحرة  
اطمأن إليها وسألها أن تحي له نبياً ، فسأته أي الأنبياء يختار ، فاختار « شمویل »  
فبشمه حياً ..! ولكنها فزعت عند رؤيته وارتاعت ، فسألها « طالوت » عن رأيت ،  
فقالت إنه شيخ بهي « مثل ملائكة الرب ، مشتمل بيرانس قد صمد من الأرض .  
فأدرك طالوت أنه شمویل ، فدخل إليه وسجد بين يديه » ، فقال شمویل يا طالوت  
لم أرجعتني وأحييتني ؟ قال لما ضاقت بي الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياي ،  
وزوال عناية الله عني ومنمه الأحلام مني ، دعوتك لأستشيرك في أمري ، فقال  
شمویل إن الله تعالى قد نقل الملك إلى صاحبك داود ، وغضب عليك وعلى  
بنی إسرائيل ، جزاء ظلمكم للماليق وقتلكم مواشيهم ، وسيكفل النصر لأعدائكم ،  
ثم خر منشفياً عليه ، فعرفته الساحرة ومن كان معها ، فأقبلوا عليه حتى أفاق وأضافهم  
ليلتهم وانصرفوا مصبحين ، ولما انتهت الحرب ، حطت الهزيمة على العبرانيين ،  
وكثر القتل فيهم « وقتل طالوت ثلاثة بنين وانكأ هو على حربته فأخرجها من  
ظمره ، فاجتمع بنو إسرائيل على تملك داود ، فدافع بهم من ناوأوهم (١) .

/ وبعدهم إخوان الصفا مندول السحر حتى يشمل الأنبياء ، فمن السحر في رأيهم  
ما اختص به الأنبياء والحكماء ، ومنه ما اقتصر المسلم به على النساء والعرب ، وقد  
سمى الأنبياء في الأمم الخالية سحرة ، لأنهم أظهروا من المنجزات الباهرات ما حير  
الألباب ، كما سمي الحكماء قديماً بالسحرة لأنهم كانوا يخبرون بالكائنات ، فيستكلمون

بالإنذارات والبشارات بما يكون في العالم من السرور والخيرات ونزول البركات والنعمة ، فنسبوههم إلى الكهانة لما عميت عليهم الأنبياء ، ولم يعرفوا النبوة والأنبياء عليهم السلام ، وزعموا أن لهم أصحابا من الجن يأتونهم بأخبار السماء فيعلمون بذلك ما كان وما يكون » « وفي آيات القرآن ما يشهد بصحة ما نقول ، مع أن سحر الأنبياء يشبه العلم بالأمور التي ليس في وسع البشر العلم بها ، إلا عن طريق الوحي والتأييد الإلهي ، وأخذها عن الملائكة ، وعن هذا يجيء الإخبار بالغيب بما كان وما يكون ، ولهذا كانت الجاهلية تقول عن اعتناق الإسلام إنه قد صار إلى دين محمد ، وقد عمل فيه سحره ، وئمة سحر باطل يقوم على تنميق الباطل وإنكار الحق وإدخال الشكوك على المستضعفين حتى يصدوا عن دين الله (١) . وقد شمل السحر النجامة والكهانة أيام موسى (٢) ، مع أن النجامة كانت في الجاهلية تشمل الزجر والكهانة (٣) .

### صغار السحر في مجال الإدراك الغيبي :

حسبنا هذا إجمالا للسحر في مختلف آفاقه ، ولنحاول الآن بيان مكانه في مجال الإدراك الغيبي — إن كان له مكان بهد هذا التضارب في تحديد آفاقه :

ورد فيما أسلفناه ما يشير إلى أن الإخبار بالغيب ، يدخل في نطاق السحر فيما يدعى أهله ، ومن أجل هذا عرضنا للحديث عن السحر لئلين عن مدى ما في هذا الادعاء من حق أو باطل ، فإن أصناف السحر السالفة الذكر ، لا تعتبر غيباً بالمعنى

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٤٧ - ٣٤٩ وبعد قصة طويلة تؤيد بها هذا القول تعود إلى

الحديث في ص ٣٦٠

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٠٢ (٣) المصدر نفسه ص ٣٦٥ وقد حذفنا ما يلي هذا

من حديث عن طرق السحر وأنواعه ، لضيق المقام ، وكنا قد رجعنا في تأريخها إلى طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٧ و ٣٠٤ - ٥ وابن خلدون ص ٩٥ و ٤٣٤ والشهناوى ج ١ ص ٦٤٩ - ٦٥١ وحاجي خليفة والتنوحي ... الخ .

الإسلامي الذي أسلفناه — إذا استثنينا نوعاً واحداً هو سحر الأنبياء — فيما يقول إخوان الصفا — فإن ما عداه يجيء اكتساباً بريضة النفس أو إجراء عزائم أو تسخير كواكب ، أو استعانة بجن وأرواح أرضية أو نحو ذلك من طرق ، ولكننا سلمنا من قبل بأن الكهانة تدخل في نطاق الإدراك الغيبي ، رغم استعانة أهلها بالجن والشياطين ، لأن مرجع الأمر فيها إلى طبيعة أصحابها ، وقد عرفنا أن الفلاسفة يقولون إن السحر مرجعه إلى الاستعداد الطبيعي عند أهله ، ولكننا إذا رجعنا إلى تحديدهم لآفاق السحر ، وجدنا أنه لا يكشف — في رأيهم — عن خفي الأمور والأحداث التي طواها الماضي أو أخفاها المستقبل ، وعلى هذا فليس من الممكن اعتباره إدراكاً غيبياً عند جمهرة مفكري الإسلام .

والسحر الذي تتوافر فيه شروط الإدراك الغيبي كما نص عليها هؤلاء المفكرون ، هو سحر الأنبياء الذي يكشف عن مستقبل محجب ولا يجيء اكتساباً ، بل وحيّاً وتأيداً إلهياً ، ولكننا لم نجد من المفكرين من يعتبر هذا سحراً غير إخوان الصفا — وقد زعموا في سياق تأييدهم له ، بأن الأنبياء قد عرفوا السحر ولكنهم لم يستخدموه ، لأنه ضرب من الحيل ، ولم يبعث الرسل من أجل ذلك ، ولو أنهم فعلوا هذا لكانت استجابة الناس إلى دعواتهم ، استجابة للخديعة لا إلى العلم الذي فيه نجات النفوس ، ذلك بالإضافة إلى أن فوائد السحر تقتصر على العلم الأرضي ، والأنبياء دعاة العالم العلوي — الذي هو أعلى من عالم الأفلاك ، وقد أتى الأنبياء أن يضيفوا إلى تأييد الله ووحية حيلة بشرية أو نيرنجية فلسفية ، أما نحن فيجوز لنا استعمالها في مصالحنا الدنيوية وهم في غنى عما نفتقر إليه<sup>(١)</sup> .

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٤٧٥ — ٤٧٧ وفي غير هذه الصفحات ما يؤيد ذلك مثل

٤٣١ و ٤٢٣ وغيرها .

ولسكننا نلاحظ بأن السحر لا ينسب إلى الأنبياء إلا مجازاً ، فإن جمهرة المفكرين لا يهتمون مثل هذا الرأي ، والذين زعموا بأن السحر إتيان بخارق وأنه يكون معجزة للأنبياء وكرامة للأولياء والصالحين ، قد صادفوا الكثير من حملات المنكرين لرأيهم . فأما الفلاسفة فقالوا إن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس تأثيراً ، فالنبي يؤيد بروح الله على فعله ذلك ، أما الساحر فإنه يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال ، فبينهما الفرق في المقولية والحقيقة والذات في نفس الأمر<sup>(١)</sup> ، وقد ذهب المتكاملون إلى أن الفارق بين المعجزة والسحر — والكرامة — أن الأولى تقوم على التحدى بها بإذن الله ، وهي واقعة بقدره الله لا بفضل النبي — وقد أقاموا هذا الرأي على أساس فكرتهم في العقل المختار ، وإن كانت أعمال العباد تصدر عنهم — في رأي المتزلة — إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ، ولكن الحكماء الإلهيين ذهبوا إلى أن الخارق من فعل النبي وليس من الضروري أن يكون مقترنا بالتحدى<sup>(٢)</sup> ، وكان أهل السنة يجوزون قدرة الساحر على أن يسبح في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً بقدره الله<sup>(٣)</sup> ، ولكن أهل الحق قد ذهبوا إلى أنه لا يقرب أحد عيناً ولا يجبل طبيعة إلا الله لأنبيائه وحدهم ، ولا يقبل شيء مما في العالم من فصوله الذاتية وأنواعه وأجناسه إلا حيث قام البرهان على تبدله<sup>(٤)</sup> وفي المصادر التي نشير إليها إنكار بين لوصف الأنبياء بأنهم مسحرة .

(١) ابن خلدون ص ٤٣٨

(٢) المصدر السالف ص ٨١ - ٨٢ ، وابن حزم ج ٥ ص ٧ - ١٠ يطل هذا الرأي بخمسة أسباب يعرضها في تلك الصفحات .

(٣) التهانوي يعرض الفكرة ويناقشها في ج ١ ص ٤٤٣ - ٤٤٥ ، ٦٤٩ - ٦٥٢

(٤) ابن حزم ج ٥ ص ٢ وما بعدها ، ويعرض الفكرة ويحمل عليها .

وعلى هذا فالرأى الراجح عند مفكرى الإسلام ، أن السحر لا يدخل فى نطاق النبوة ، وأنه إذا كان يكشف الغيب — ما اتصل منه بالاضى الخفى أو المستقبل المحجب ، فإنما يحىء هذا اكتساباً لا طبيعياً وفعارة ، ولا حياً وإطاماً . فليس فى السحر وفروعه فى مختلف ممانها ما يمكن أن يدخل فى نطاق الإدراك النبوى الطبيعى كما سلم به أهل الشرع ، على نحو ما أبنا فى الباب الذى عقدهنا على « علم الغيب عند مفكرى الإسلام » .

وما ينبغى أن نفرغ من الكلام على السحر ، دون أن نسجل إعجاب الغربيين بمهارة المسلمين فى « هذا الفن » ، وحسبنا من هؤلاء الأستاذ « لين » Lane وقد روى الكثير من التخصص التى شهدها فى مصر بنفسه ، منها أن الشيخ عبد القادر المغربى قد تمكن بسحره من معرفة اللص الذى سطا على أمتعة المستر سوات Mr. Salt فنصل إنجلترا فى مصر ، وصرح بأن الساحر قد استطاع أن يستحضر أمام الوسيط — وكان صبياً صغيراً — صورة اللورد نلسون وشكبير وغيرها من أصدقاء « لين » ومعارفه . . .!! وأكده صدق هذه الظواهر مع اعترافه بجهله بسرها ، وتصريحه بأن الكثير من هذه التجارب قد فشل ، ولكنه يقول إنها كانت تبدو بين نجاح كامل أو فشل مطلق ، ولا وسط بينهما ، ويمتد قائلنا إن مجلة Review Quarterly قد حاوت — فى عددها السابع عشر ص ٢٠٢ — ٢٠٣ — أن تفسر مثل هذه الظواهر ، بانعكاس الصور على سطح مرآة ، حيث تتألقها عينا الصبي الوسيط ، على سحابة من الدخان ، ولكن « لين » رفض هذا الرأى تفسيراً لظواهر السحر التى رآها فى مصر<sup>(١)</sup> .

(1) Lane, p. 274-282

حسبنا الآن هذا عن أساليب التكهن الصنعي ، ولسنا ندعى بأننا قد أحصيناها  
وعرضنا للكلام عنها جميعا ، أو بأننا استوفينا الحديث عما عرضنا له منها ، لأن هذا  
بحث يطول أمره ، ويعوزه من الجهد والوقت فوق ما بذلنا وما قصدنا .

ولعل من الخير أن نقول الآن إن أساليب التكهن قد دخلها الزيف والدجل  
كثيرا ، واتخذها البعض أداة للتجارة ، مستغلا سذاجة الناس وسرعة التصديق  
عندهم ، طمعا في اكتساب المال على حساب غفائهم ، وقد مكن لهذا الاستغلال  
اتصال التنبؤ باليول الفطرية عند البشر<sup>(١)</sup> .

ولكن من الخير أن نبين عن موقف أهل الشرع من هذه العلوم ، وإن كنا قد  
عرضنا له قبل ذلك موجزين ، فقد يكشف هذا عن وجوه من التقابل بين موقف  
مفكرى الإسلام وموقف مفكرى اليونان والرومان قديما ، وإن كان من  
الضروري أن ننص في هذه المناسبة على أن موقف المسالمين مرده إلى الدين ، يلجأون  
إليه ، ويستمدون منه العون في تأييد ما يرون تأييده ، أو مهاجمة ما ينكرونه من  
أساليب التكهن . أما فلاسفة اليونان والرومان فإنهم كانوا يلجأون في مناقشة هذه  
الأساليب ودحضها إلى العقل ومنطقه ، ومن أيديها منهم استعان بالتجربة والمنطق  
أكثر مما استعان بتقاليد الشعوب وعقائده الدينية .

---

(١) اعترف بهذا « كوتوس » Quintus الرواقى ، في ختام دفاعه عن فنون التنبؤ  
الطبيعى ، فصرح بشئ هذا الدجل في روما قديما - ( انظر الفقرة ٥٨ من الكتاب الأول في  
كتاب العلم بالغيب لثيسرون ) وقد شرح شارل أبون موقف مجلس الشيوخ الرومانى في مقاومة  
هذا الدجل ( في تعليقه على الفقرة السالفة في طبعة جارنييه ) .

## موقف أهل الشرع من العلوم السالفة

اختلفت وجهات النظر عند المسلمين ، بين تأييد هذه العلوم وتحريمها ، ولعل مؤيديها كانوا متأثرين بالتراث العقلي القديم - ولا سيما الهيليني الذي انتقل إلى المسلمين في هذا الصدد ، كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الخلاف بين المتكلمين من ممثلة وأشاعرة ، وإخوان الصفا ومن إليهم في مجال التنجيم ، أما منكرو هذه العلوم الصنمية فقد تأثروا - فيما يظهر - بالروح الدني ، وتحقير كل تنبؤ لا يرد إلى وحى الله وإلهامه . ومن مظاهر هذا الخلاف أن نرى الفزالي يذكر العلوم التي يعتبرها العامة علوماً محمودة وليس منها ، فيقول ما خلاصته : إن العلم هو معرفة الشيء على ما هو به ، وأنه من صفات الله تعالى ، فكيف يقال إنه مذموم ..؟ في الحق إن العلم لا يذم لذاته ، وإنما يذم في حق الناس لأحد أسباب ثلاثة ، يعيننا منها اثنان : (١) أولها أن يكون العلم مؤدياً إلى ضرر صاحبه أو أذى غيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات ، وهو في ذاته حق إذ شهد له القرآن ، والثابت أن الرسول قد سحر حتى أنبأ بذلك جبريل وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر ، فعرفة السحر ليست مذمومة إلا لأنها أداة لإضرار الناس : (٢) أن يكون مضرراً بصاحبه في غالب الأمر ، كعلم النجوم - فهو في نفسه غير مذموم لذاته ، وعلم الأحكام منه ما هو مذموم شرعاً ، قال الرسول إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ... وقال أخاف على أمتي بعدى من ثلاث : حيف الأمة ، والإيمان بالنجوم ... وقال عمر تعلموا من

النجوم ما تهتدوا به في البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه :  
 ( أ ) قد يظن الناس أن الكواكب هي المؤثرة فهي الآلهة المدبرة يرجى منها  
الخير ويحذر منها الشر من جهتها ، وينمحي بذلك ذكر الله (١) .

( ب ) أن أحكام النجوم محض تخمينات ، فهي لا تدرك يقيناً ولا ظناً ، وقد  
كان العالم ممجزة لإدريس وانمحي ، وما يتفق من إجابة المنجم على ندور فهو محض  
اتفاق ، كتخمين الإنسان بأن السماء ستمطر اليوم استناداً إلى النجم ، وربما ذهب  
النجم فلا يصدق حدسه ، كتخمين الملاح بأن السفينة تسلم اعتماداً على ما عرفه من  
أمر الرياح ، رغم أن للرياح أسباباً خفية لم يطالع عليها .

( ج ) أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يقنى ، وتضييع  
العمر فيما لا طائل تحته ، وما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن (٢) .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن العلماء بين مسلم بهذا التقسيم ومنكر له ،  
فالسحر الذي أشير إليه الآن لم يتفق العلماء على حكم الدين بصدهه ، وهم بين مبيح ومحرم ،  
وبعض مؤرخيه يقول إن أكثرهم قد أباحه ، وجملة بعضهم فرض كفاية لجواز  
ظهور ساحر يدعى النبوة ويظهر الخوارق بالسحر ، فيفترض وجود من يدفعه في  
الامة (٣) وقال بعضهم إن السحر لا يظهر إلا على يد فاسق كما أن الكرامة لا تظهر

---

(١) أشار إلى هذا غير الغزالي من منكرين ومؤرخين كالتهانوي ص ٥٢ وطاشكبرى  
زاده ص ٢٧٦ وبعض المستشرقين - على ما عرفنا من قبل .

(٢) الغزالي في الأحياء ج ١ ص ٢٦ - ٢٧ والسبب الثالث : ذم العالم لأنه لا يقيد فهو  
مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليها . . . وقد أعتبر التهانوي ص ٥٢ السحر والنجوم  
والطلسات والتبرنجات علوماً غير محمودة .

(٣) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٧

إلا على يد متق مؤمن<sup>(١)</sup>، وليس له دليل من العقل إلا إجماع الأمة، وعلى هذا كان تعلمه حراما مطلقا لأنه توسل إلى محظور، وأما ما يثير الدهشة مما يفعله أصحاب الحيل بالاستعانة بالآلات والأدوية، أو مما يبدو من صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرا على التجوز<sup>(٢)</sup> وقيل إنه كفر لأن الأرواح الكافرة المعينة على السحر لا تجيب الساحر إلا إذا خرج عن دين الإسلام<sup>(٣)</sup>، واحتج هؤلاء بآراء الأئمة الذين أجمعوا على تحريمه، وإن اختلفوا في كفر من يتعلم السحر ويعلمه<sup>(٤)</sup>، والراجح أنه حرم لأن رياضته إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والخضوع والتذلل، فهي وجهة إلى غير الله<sup>(٥)</sup> فإن الأصولى الأندلسى أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي يقول: إن العزب اعتنوا بعلوم صححت الشريعة منها ما هو صحيح، وأبطلت ما هو باطل، ثم يذكر علم النجوم بين العلوم الصحيحة، ويذكر العيافة والزجر والكهانة والضرب بالحصى والطيرة ونحوها بين العلوم التي أبطلتها الشريعة<sup>(٦)</sup> وهكذا تراوح علم النجوم بين التحريم والإباحة.

وذهب البعض إلى أن علم النجوم على ثلاثة أقسام: حسابات تعيينية في علمها قد يعمل بها شرعا، وطبيعية كالاستدلال بانتقال الشمس في البروج الفلكية على

(١) أشرنا من قبل إلى أن هذا رأى الحكماء الإلهيين في ردِّهم على المتكلمين .

(٢) التهانوى ج ١ ص ٦٤٨

(٣) الشعرائى فى البواقى ج ١ ص ١٤٣

(٤) الشعرائى فى الميزان ج ٢ ص ١٤٣ .

(٥) ابن خلدون ص ٤٣٤ - ٤٣٥

(٦) الشاطبى : الموافقات ج ٢ ص ٤٦ ( عن الاستاذ أمين الحولى فى تعليقه على مادة تفسير فى

تغيير الفصول ، فليست بمردودة شرعا ، ورهيبات ( أحكام النجوم ) كالأستدلال على الحوادث السفلية من اتصالات الكواكب ، فلا استناد لها من أصل شرعى ، ولهذا فهي مردودة شرعا ، والأحاديث النبوية فى هذا كثيرة (١) .

وقال بعض متكلمي هذه الأصناف من إدراك الغيب ، إن الله تعالى يقول : وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، وأن الرسول يقول : من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد (٢) ، وقيل إن الكهانة على قسمين : فعارى وآخر كسبي ، ( قيل إنه المرافة ) وأن هـسنا هو الذى حرمت الشريعة سلوكه ، فوجب الاحتراز عن تحصيله واكتسابه (٣) . ولكن بعضهم يعترف بأن فى حديث أهل الكهانة ما يعزى إلى الكفر (٤) . وقد أشرنا إلى موقف المفكرين من الكهانة بعد بعثة الرسول وعجوماتهم عليها حتى أبى الكثيرون أن يسلم بوجودها بعد البعثة ، والذين دافعوا عنها لم تسلّم من حملتهم دينيا ، وكان الفقهاء من متأخري علماء الدين لا يرون فارقا - فيما يبدو بين الفاسفة والكهانة والسحر والشعبذة والتنجيم والرمل ! ويحرمون الاشتغال بها (٥) .

على أن الاتجاه الشائع - رغم هذه الخلافات كلها - هو الذى عرضناه فى الفصل الذى عقدناه على « علم الغيب عند مفكرى الإسلام » وقلنا فيه إن الله وحده هو علام الغيوب ، وأنه يهب العلم بالغيب من شاء أن يجتبيه من عباده ، وأن هذا الاتجاه قد انتهى إجمالا إلى تأييد التنبؤ الطبيعى فى مختلف فنونه ، وإنكار الصنعى فى شتى أساليبه .

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٣٨١ وانظر القنوجى ص ٢٩٣ و ٦٢٣

(٢) التهانوى ج ١ ص ٥٢ ورواه الأبخيبي « ... فقد برىء مما أنزل على محمد ... »

(٣) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٩٥ (٤) حديث أبى سليمان السجستاني فى مقايسة

الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب ص ٢٢٦ من المقايسات .

(٥) قارى مصطفى عبد الرازق باشا فى تقييده لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٨٨ - ٩ حيث

يورد استفهادين رائعين فى هذا الصدد .

## موقفنا من التكهن الصناعي

عرضنا الأساليب التي كان يتبناها أصحاب التكهن الصناعي ، وقلنا إن جمهرة مفكرى الإسلام قد أبدوها عن نطاق الإدراك الغيبي ، لأنها تستند إلى مهارة الصنعة ، ومنطق العقل وأدوات الحس ، ولا تصدر عن طبيعة أهلها وحدها ، أو تفيض عن وحي الله وإلهامه .

وهذه الأساليب صردها - فيما يبدو لنا - إلى سمة الخيرة ، وبمد النظر ، وحسن التقدير ، وتوثب الفطنة والتبصر ، ووقدة الذكاء وسرعة البديهة ، وصدق الحدس ، ورفعة الملاحظة ، وحسن الأفاذة من سابق التجربة ، ونحو هذا مما رفض جمهرة مفكرى الإسلام إعتباره أداة لإدراك غيب محجب ، ولكن مناهج البحث العلمى لا ترفض اكتشاف المجهولات ، متى أدت إليها مقدمات ، استناداً إلى القول بأن العلة تدور مع معلولها وجوداً وعدمها ، ومن هنا جاز القول بأن ما أسلفناه من أساليب التكهن الصناعي ، يصدق منه كل ما وضحت فيه روابط المعلول بعلمته ، ويكذب منه فى منطق العقل كل ما افتقدت فيه هذه الصلات ، وإن كان من الضرورى مع هذا أن ننص على أن عجز العقل عن تفسير ظاهرة ما ، لا يبرر التأدى - فى كل حال - إلى إنكار هذه الظاهرة<sup>(١)</sup> . وفى ضوء هذا ، نستطيع أن نحال - موجزين - أهم ما أسلفناه من الأمثلة التي عرضناها فى أساليب التكهن الصناعي :

(١) سنعود إلى مناقشة هذا فى الفصل التالى .

ذكرنا نموذجاً للكهانة يتمثل في التنبؤ بسيل المريم - الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وقلنا إن ظريفة الخير قد كهنت بأصم السيل في رؤيا ، ثم تطيرت من مشاهد المناجذ والساحفة ونحوها ، فتنبأت بوقوع السيل الذي اجتاح البلاد على ما عرفنا ، والملاحظ من هذا أننا لا نجد بين مارآته وما انتهت إليه ، علاقة عليية ، ومع هذا لا نميل إلى تكذيب القصة ، لأننا نجد في تحاياها ما يفيدنا عن إنكارها ، لأن من الميسور على أهل الخبرة والفتنة ودقة الملاحظة والعلم بقوة السيل في كل عام ، وملاحظة التحلل الذي بدأ يدرك السد ، أن يتوقعوا عجز السد عن مقاومة السيل المقبل ، وأنه إن استطاع أن يصمد للسد عاما ، فإن تدوم مقاومته أكثر من سبع سنين - كما ورد في القصة - وحسب ظريفة وأمثالها من الكهان ، أن يدركوا ذلك ، أو أن يتسامعوا به من أهل الخبرة والفتنة ، فإن هذا كفيل - من الناحية السيكلوجية - بأن ينشىء عند النوم حلما تبدو فيه سحابة تنهمر وسط رعد وبرق ، ويكبر المنظر في منطلق الحلم ، فلا تأتي السحابة على شيء إلا أحرقتة .. !

وأما المشاهد التي تثير التطير والتشاؤم ، فإنها كثيرة في حياة كل إنسان ، في كل زمان ومكان ، فإن كان للمناظر التي رأتها تلك الكاهنة دلالة على غيب محجب ، فلماذا تكون دلالتها قائمة في وقوع سيل مجتاح ، ولا تكون موت عزيز أو قيام حريق أو زول وباء أو نحو ذلك .. ؟

وأما الفأر الذي كهنت بوجوده في السد ، واقتداره على قلب صخرة يعجز عن قلبها خمسون رجلا ، فإن هذا مرده إلى الإغراب في التصوير ، والتنميق في التعبير ، أو مرجعه إلى القول بأن سدا كبيرا يتحلل - كسد مأرب - لايسهل تصوره خلوا من الفيران ، وفي استطاعة الفأر أن يحفر تحت الصخرة الكبيرة فإذا بها تهوى

مقاربة ..! ولعل من قبيل الإغراب في التصوير ، امتلاء الزجاج بتراب البطحاء من غير ربح ، وظهور الحصباء في سمف النخل ..!

ومن قبيل هذا الذي يفتقد فيه العقل البلاقة بين المعلول وعلائه ، مارويناه من أمثلة العرافة ، في الاستدلال على الغيب بكلمة تُسمع أو منظر يرى أو نحو ذلك ، وليس من السهل أن نكتشف علاقة علمية بين نوى التمر الذي رآه العراف الأشعبي ، والياقوت والزمرد وغيره مما سرق من خزانة الرشيد ، إنها علاقة تشابه في الشكل أو اللون أو نحوه مما لا يمكن اعتباره علاقة علمية بحال ما . ومن الواضح أن أشباه النوى في غير الأحجار الكريمة كثيرة . ولعل الأذى إلى الصواب أن يقال إن العراف قد تسمع بأن الرشيد قد سرقت خزائنه ، وليس هذا بالشئ الذي يكتم نبأه ، فرتب العراف على ما سمع ، كل ما ورد في قصته ، ومثل هذا يقال في قصة أبي معشر وخلص السجين وغيرها من قصص .

وما قيل في الكهانة والعرافة ، ينسحب على الفأل والطيرة ، فإن ما وقع لجعفر البرمكي أو الوليد بن عبد الملك ، مرده إلى مجرد المصادفة فيما يلوح ، ولو لم يسمع جعفر الشعر الذي تطير منه ، لما كان في حكم العقل أن يتغير مصيره من أجل ذلك . ولو لم يمزق الوليد كتاب الله ، ما كان يحتمل أن ينتهي - من جراء ذلك - إلى غير القتل والصلب . وما أجل موقف عمر بن عبد العزيز حين أنكر استفتاء القمر فيما يفتناره من أحداث - على مارويناه من قبل ، وهذا يشهد بأن المسلمين - كغيرهم من شعوب الأرض لم يكونوا على اتفاق بصدد الإذعان لهذا النوع من التطير والتفأل ، وقد صدق ابن قيم الجوزية حين قرر بأن التطير يكون لمن خافه وخشى مغيبه ، وينعدم أثره عند من أغفل شأنه وأسقطه من حسابه .

فكان ابن قيم الجوزية ، أراد أن يقول : إن المثير الذي يؤدي إلى التطير عند

إنسان، قد يبعث على التلهي والتهمك عند غيره ، فالعبرة بمركز الاستجابة ، لا بمصدر الإثارة ، فإن المسكر ، يستجيب له أهل المرح والغناء والرقص ، وأهل المزاج السوداوى بالكآبة والبكاء ، وأهل الشغب والإجرام بالتخريب والتدمير..! فالؤثر واحد ولكن الاستجابات بيّنة الاختلاف ، ومن هنا كانت مثيرات التطير عند أهله ، تفضى عند أصحاب الأعصاب السليمة والمزاج المعتدل والنظر المتزن ، إلى التندر الظريف بالتطير وأهله، وقد تحدث الدكتور طه حسين بك في محاضرة له ، عن إسراف ابن الرومي في التطير ، إلى حد سلازمة بيته أياما ، لأنه رأى جاره الأحذب أو نحو ذلك ، وعقب قائلاً إن تشاؤمه وتطيره قد أصاب ديوانه ، فلم يعرض له أحد ، إلا أصابه من ذلك سوء ، « وبعض الناس يتندر بذلك ، لأن الأستاذ العقاد ، أراد أن يكتب عنه فسجن .! وأرجو ألا تكون محاضرتنا عنه مصدر شيء من هذه الأشياء التي أعينكم أنتم منها إن لم أعين منها نفسي ..! » (١)

وقد تحدث الدكتور عن طبيعة ابن الرومي ، في حدة مزاجه واضطرابه واعتلال طبيعه وضعف أعصابه ، ودقة حسه التي تكاد تبلغ حد الإسراف . وذهب العقاد في معرض حديثه عن طيرة هذا الشاعر إلى أن « الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشئ من ضعف الأعصاب واختلالها » ولعل الأستاذ يريد بضعف الأعصاب ، ما يسميه الأطباء Neurasthenia وهي حالة تكون في العادة وراثية ، وقد تنشأ عن ضعف البنية أو تتخلف عن الحميات والأمراض المعدية والإدمان على المخدرات والإصابات النفسية ونحوها ، وكثيراً ما تحدث عقب إجهاد حيوية الجهاز العصبي ، وتؤدي إلى

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص ٢٢٩ - ٢٣٠ (طبعة أولى)

قصور في العقل والجسد وهي تسمى Psychasthenia إن كانت أغلب أعراضها نفسية<sup>(١)</sup>  
« والرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم لأنه ينتظر من الدنيا خيراً ، ولا يحس  
النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها ، وقد تصادفه الحوادث كما  
تصادف الناس كافة ، فتقع على نفسه موقعا خفيفا ، يملك معه عزمه ، ويضبط معه  
شعوره ، فهو في غنى عن الخذر والتوجس ... أما مختل الأعصاب فالصفاخر مكبرة في  
حسه ، والأشباح والأطياف كثيرة في وهمه .. تتوارد عليه المنبهات ، وكل طارق في  
الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج - فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ، ويلوح المخاوف حيث  
لا يلحها الآخرون ، كما هو الشأن في كل مستحضر للخطر ، متوقع للمفاجأة »<sup>(٢)</sup>  
فالتوقع واستحضار الخذر من كل مجهول ، هو سر التطير عند أهله .

أما شيوخ التنجيم في قصور الخلفاء فإن ابنه ما يبرره ، لأن الملوك والحكام أكثر  
الناس حرصاً على مراعاتهم ، وتهميها من مخبثات عدوهم ، ولا غرابة - إن صحت القصة -  
في أن يتنبأ إنسان بوفاة الحجاج وهو مشرف على الاحتضار ..! وليس ثمة ما ينفي علم  
المنجم بأن أم الحجاج كانت تسميه كليباً ..! ومثل هذا يقال في الكثير من أحداث  
المنجمين مع الحكام ، وقد أشرنا من قبل إلى أن من هؤلاء الحكام من رفض  
الاعتقاد في حجة ما يقول المنجمون .

أما عن الفراسة وفروعها ، فليس من الغريب أن يصدق « الكثير » منها ، وإن  
كان الرازي يقول عن علم الشامات والخيلان والاختلاج والضربان ، ودوائر أبدان

(1) H. Letheby Tidy, A. Synopsis of Medicine p. 124 ff.

سادس طبعة ١٩٣٤ - وقد أمدنا صديقنا الطبيب الموفق الدكتور رجب عبد السلام ( إخصائي  
الأمراض الباطنية بكلية الطب ) بمادة طيبة في التعليق على هذه النقطة ، ولكن ضيق المقام حال  
دون نشرها . (٢) العقاد: ابن الرومي ص ١٩٣ - ٤

الخيل ونحوها ، إن من المتعذر ردها إلى أصول عليه ، أو إرجاعها إلى تجارب مروية عن المتقدمين<sup>(١)</sup> ، ولكننا نرى أن ما يصدق منها يمكن إخضاعه لقانون العملية ، وفي ضوء هذا نقول إن قيافة الأثر ، تبدو أصدق من قيافة البشر ، فقدره أولاد نزار بن معد على وصف بهير - لم يروه - استنباطا من آثاره ، لما ما يعبرها في مجال التعليل الذي يكشف عنه النظر الثاقب ، وتسمي له دقة الملاحظة . أما قيافة البشر فقد كان المسلمون على حق في الاختلاف في أمرها ، فإن كثرة الشذوذ في قواعدها ، تفسد اتساق هذه القواعد ، والثال الذي سبقناه للتدليل على فراسة أقليمون ، يمكن تفسيره بأنه كان يعرف ميل بقراط الزنا ، وإذا كان هذا قد صرح بعبارة لتلاميذه حين استفسروا منه عن ذلك ، فلا يبعد أن يكون قد ذكر هذا من قبل ، وأن يكون أقليمون قد تسمع به ، ولا صحة لقول رواة القصة ، إن «إقليمون» كان لا يعرف أن صاحب الصورة هو بقراط لأنهم يقولون «... فصوروا صورة بقراط .. وكانت يونان تحكم المصور من جميع الوجوه ، في قليل أمره وكثيره ...» وكان بقراط هذا يماصر أقليمون ، فالراجح أنه كان يعرف صورته .

وإذا كان الاهتداء بالبرارى والقفار والريافة واستنباط الميابه والمعادن ونزول الغيث ونحوه ، يصدق متى صحت المقدمات التي تفضى إلى نتائج هذا النوع من العلم ، فإن علم الأسارى والأكتاف والاختلاج والاختبارات ونحوه ، لا يصدق - فيما يلوح - إلا مصادفة ، لا تسكن إلى قاعدة يشهد بها قانون العملية ، ويرتضيها منطق العقل .

وهكذا ننتهى إلى القول بأن أحداث الغيب المحجب ، يتيسر الإنباء عنها ، متى سبقها مقدمات تنذر بها ، وهذه المقدمات تتكشف للقليابين ، وتخفى على الكثيرين ، لأن الناس يتفاوتون في خبرتهم ومدى ما يفيدون منها ، ويختلفون في دقة الملاحظة

وبعد النظر والقدرة على الحدس ، وغير هذا مما أسلفنا الإشارة إليه ، فإن ثبت انقطاع « الاتصال العليّ » بين أحداث الغيب ومقدماته ، وجب التصدي لتكذيبها ومحاولة تحليلها في ضوء المنطق العقلي وحده .

وإذا كنا قد استطعنا أن نحلل النماذج السالفة في ضوء المنطق وحده ، فمن الإنصاف للحقيقة أن نترف بأن في فنون التكهن الصنعي ظواهر يقصر عن إدراكها وتحليلها منطق العقل في وضعه الراهن ، وهذه نقطة سنعود إلى مناقشتها وبيان موقفنا إزاءها في الفصل التالي .

وأخيراً ، من الخطأ البين أن يستخف الناس بأصحاب التكهن ، فإن « لومبروزو » ومدرسته التي تأتمت به ، قد اعتبروا الواقع بالغيب واستكناه أسراره من علامات العبقريّة . ! وهذه العلامات « مهما يكن الشك في استقصائها ، والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع ، صادقة في حالات ، ومقاربة في حالات ، غير أهل في كل حال للتصديق التام ولا للنبيذ التام ، ولا سيما عندما تتفق الظواهر والبواطن ، وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور »<sup>(١)</sup> . ولعل هذا الرأي يبرره ما أسلفناه من قبل ، من أن هذا التكهن قد لا يتيسر بغير استعداد فكري يهيأ لأصحابه ، وحتى الجانب المكتسب منه ، لا يتوافر للناس جميعاً ..

حسبنا هذا إشارة إلى مكانة أصحاب الولع بخفايا الغيب أو النزوع إلى استيضاح بواطنه وكشف أسراره .

## كلمة أخيرة

التنبؤ بالفتيب بين مفكرى الأسمم وفلاسفة اليونان والرومان :

عرضنا فنون التنبؤ بالفتيب عند مفكرى الإسلام ، وقلنا إن قدماء الغربيين قد عرفوا ما يشبه فنون التنبؤ الطبيعى ، وأساليب التكهن الصناعى - من كهانة وعرافة وطيرة ونجامة وعيافة ونحوها - وصرحنا فى مقدمة الكتاب - وفى غضون الكثير من فصوله - بأننا نميل إلى رد الكثير من وجوه هذا التشابه ، إلى طبيعة العقل البشرى ، فى وحدة استجاباته للوثرات المتشابهة ، وقلنا إن هذه النظرية تتناول وجوه الحضارات البدائية من سحر وعقائد دينية ونحوها ، وتمتد إلى دقائق البحث العلمى .. ! فلنتف عن هذه الظاهرة قليلا :

### نتائج التشابه فى مصادر الأثرارة وصرار الأستجابة :

فى سنة ١٨٣٧ عقد تشاراس داروين Ch. Darwin عزمه على أن يكشف عن حقيقة النشوء بالانتخاب الطبيعى ، فاعتصم بالصبر والأناة ، وراح يتنقل فى شتى بقاع الأرض منقبا عن الوقائع التى يتطلبها بحثه ، عاكفا على عمله فى صمت يثير الإعجاب ، واتزان أضحى مضرب الأمثال ، عاف الطنطنة وزهد فى الدعاية لنفسه ، فأبى أن ينشر عن نتائج بحثه مقالا ، أو يشير إليها مجرد إشارة ، وإن صرح بها عام ١٨٤٤ صديقه العلامة يوسف هوكر Joseph Hooker فأسر إليه بخلاصتها خفية عن الناس (١) .

---

(1) A. D. White, A. History of the Warfare of Science with theology in christendom .

واصل داروين بحثه في هذا الجو العلمى الصامت الهادى عشرين عاماً ونيفاً .. !  
وعندئذ — أى فى عام ١٨٥٨ — تلقى مذكرة من ألفرد والاس Alfred Russel  
Wallace تتضمن خلاصة النتائج التى انتهى إليها فى بحثه موضوع النشوء بالانتخاب  
الطبيعى ، خلال عشرة أعوام قضاها فى التنقيب والبحث والتنقل بين البرازيل  
وأرخبيل الملايو ، ومع المذكرة خطاب يطاب فيه إلى داروين أن يبعث بها — بعد  
الإطلاع عليها — إلى العلامة تشارلس ليل Sir. Ch. Lyell ليقدّمها إلى منتدى  
لينىوس Linnean Society . وما اطاع داروين على هذه المذكرة حتى أثارت دهشته ،  
لأن صاحبها — والاس — قد اهتدى على وجه التحقيق إلى نفس النتائج العامة التى  
وصل إليها داروين من قبل .. ! ويسجل داروين — فى أمانة العالم النزىه — هذه  
المفاجأة فى مطلع كتابه عن أصل الأنواع ، فيقول عن « والاس » إنه : « Has  
arrived at almost exactly the same general conclusions that I have on  
the origin of species » (1)

فما تفسير هذا الاتفاق الذى وقع بين عالين يبحث كل منهما مستقلاً عن الآخر..؟  
التفسير الراجح فى منطق العقل ، أن الوقائع التى كانت موضوع البحث عند كليهما  
من نوع واحد ، وطبيعة العقل عند كليهما واحدة ، ومن ثم انتهى البحث عند  
كليهما إلى نتائج متشابهة ، ولم يكن فى حكم العقل أن تختلف وجهات النظر ، وقد  
تشابه فى الحالين مصدر الإثارة ومركز الاستجابة .

---

وعندئذ نصحه (1) Ch, Darwin, The Origin of Species-intr. p. 1. (1920) « هوكر » و « ليل » بالمسارعة بتقديم بحثه للهيئات العامة وجمهور القراء ، مخافة أن يفقد ثمرة عمله المتواصل طوال هذه المدة ، فقدم إلى منتدى لينىوس — مع بحث والاس — خلاصة بنتائج أبحاثه ، ونشر البحثان فى الجزء الثالث من مجلة المنتدى ، وبادر إلى إصدار الجزء الأول من كتابه « أصل الأنواع » فى يوليئ ١٨٥٨ ، واعترافاً بمنهجه فى البحث وغزارة مادته ووفرة أدلته ، نسبت إليه نظرية التطور ، وسقط عند الناس اسم « والاس » .. !

وإذا كان هذا هو الحال في دقائق البحث العلمى، في موضوعات لا تتصل بطبائع البشر، فما أحرأ أن يكون كذلك في موضوع كهو موضوع التنبؤ بالغيب، تربطه بالطبيعة البشرية أوثق الصلات.

على أننا نبادر — دافعاً لكل لبس — إلى تسجيل احتياط لا سبيل إلى إغفال ذكره، وهو أن ميلنا إلى تفسير الكثير من وجوه التشابه في ضوء هذه النظرية، لا يمنع من ميلنا إلى التسليم بردّ وجوه من التشابه في هذا الصدد إلى نقل اللاحق عن السابق، وعدوى الآراء وتزواج الثقافات.

على أن الكثير من الآراء التي انحدرت إلى المسلمين عن اليونان والرومان، مرجع الفضل فيها إلى قدماء الشرقيين..!! فمن هؤلاء استقى الغربيون الكثير من الآراء التي تسالت إلى العالم الإسلامى بعد ذلك — فيما يقول مؤرخو التكهن بالغيب. ومن دلالات هذه الظاهرة:

أن مجلس الشيوخ الرومانى قد قرر — فيما يقول شيشرون منذ عشرين قرناً — إيفاد ستة — وقيل عشرة — من أبناء البارزين من الرومان، إلى كل قبيلة من قبائل أوروبا، لدراسة أساليب التكهن، مخافة أن تضمحل وتتحول إلى أداة للتجارة والارتزاق<sup>(١)</sup>. ويرجع انتشار علم التنجيم — فيما يقول بوشيه او كايك — في دول البحر الأبيض، إلى السكاهن الكلدانى «بيروس»<sup>(٢)</sup> بل ردهيردوت فن التكهن اليونانى إلى أصل مصرى<sup>(٣)</sup>.

(١) Cicero, Divination, 1. 41 وقد مهر هؤلاء في التكهن بفحص أحشاء الحيوانات وتأويل النذر الزاجرة المستمدة من خوارق الأرض والسماء — انظر الفقرة التالية في الكتاب نفسه.

(٢) Bouché. Leclercq, L'Hist. de la Divination, 1. p. 207

(٣) قارن تعليقات شارل أبون في طبعة جارنييه على الفقرة الأولى من القسم الأول في كتاب شيشرون السالف الذكر.

ويروى « شارل أيون » أن مجلس الشيوخ الروماني كان كثيرا ما يضيّق بكثرة الشرقيين من الكهّان في روما وإيطاليا كلها . وقد تقرر في عام ١٣٩ ق . م طرد الكلدانيين من روما في ظرف عشرة أيام<sup>(١)</sup> .

ويصرح الأستاذ بوشيه لوكيرك Bouché-Leclercq بأن اليونان قد استعاروا الكثير من معلوماتهم في موضوع الأحلام ، عن مصر وغيرها من بلاد الشرق القديم<sup>(٢)</sup> ، وإذا كان الثابت أن المسلمين قد استعاروا الكثير من وجهات نظرهم في تأويل الرؤيا ، عن كتاب أرطميديورس اليوناني ، على اعتبار أن ابن النديم يقول إن حنين ابن إسحاق قد نقل هذا الكتاب إلى العربية<sup>(٣)</sup> ، فإن الأستاذ « سايس » يصرح بان أرطميديورس قد استقى مادة هذا الكتاب عن البابليين ..!<sup>(٤)</sup>

فن حقا بعد هذا أن نقول إن العالم الإسلامي ، إذا كان قد استقى بعض آرائه في أساليب التنبؤ عن الغربيين ، فمعنى هذا أنه استرد تراثا شرقيا قديما كان قد انتقل إليهم وتفاعل مع تراثهم في هذا الصدد ، وقد تمثل المسلمون هذه العناصر الشرقية المتغربّة ، لأنها تسير روحهم وتنفق مع طبائعهم .

ومعنى هذا أن وجهات النظر الإسلامية في موضوع التنبؤ بالغيب في كل صورته ، مردّها — في الأغلب والأعم — إلى طبيعة التفكير عند أهلها ، والتراث الذي زودهم به الدين الإسلامي والبيئة العربية إجمالا . والنظرية التي حرصنا على تطبيقها على موضوع هذا الكتاب وهي «متى تشابهت مصادر الإثارة ومرا كز الاستجابة ، تحتم

---

(١) شارل أيون في تعليقه على الفقرة الحادية والأربعين من كتاب شيشرون Cicero في « العلم بالغيب » طبعة جارنييه الفرنسية .

(2) Bouché-Leclercq vol. 1. p. 292,295

(٣) ابن النديم : الفهرست ج ٢ ص ٢٢٥ طبعة فلوجل .

(4) A. H. Sayce, Ency. of Religion and Ethics, art. Divination

وانظر في تفصيل هذا كتابنا « الأحلام » .

أن تشابه استجابة هذه المراكز « هذه النظرية لا تنفي تسليماً باتصال المذاهب الغربية من رواقية وفيثاغورية وأفلاطونية محدثة وغنوصية Gnosticism ونحوها ، بالتفكير الإسلامي وتفاعلا معها حتى اصطفت بها استجابات العقل الإسلامي ، ولو أنت تفكيره حين فأسف نظرت لهذا الموضوع ، أو علل ظواهره وفسرها في ضوء المنطق . وقد استوعب هذه العناصر السخيلة وتمثلها ، وصحبها في قالب عربي إسلامي ، يكاد الناظر إليه — في حالات التنبؤ الطبيعي بوجه خاص — ألا يفتن إلى المواد الغربية التي شاركت في تكوينه .

### عود إلى موقفنا من التنبؤ :

أبنا في الفصل السالف عن موقفنا من التكهن الصناعي ، وعرضنا لتحليل النماذج التي سقتها شاهدة على صحة أساليبه ، وحددنا ما يصدق منها وما يبطل في منطق العقل ، وقلنا إن العقل العلمي يدعن لنوع من التنبؤ ، تستخلص فيه نتائج مجهولة من مقدمات معلومة ، على افتراض أن العلة تدور مع ممولها وجودا وعدما ، وليس يسهل على هذا العقل أن يسلم بنتائج لا تسبقها مقدمات يقرها ، ومعلومات لا ترد إلى علل « قريبة » يسهل عليه إدراكها ، ومعارف لا تجيء عن طريق حس أو نظر عقلي ، ومعنى هذا — إن جاز أن يكون مثل هذا العقل العلمي ، هو الحكم الوحيد في قضية التنبؤ بالغيب — أنه سينتهي إلى عكس ما انتهى إليه مفكرو الإسلام ، حين رفضوا التسليم بالصنعي من أساليب التكهن ، فاستبعدوا من مجاله كل ما كان نتائج لمقدمات تبرر قيامها ، وأذعنوا للتسليم بالتنبؤ الطبيعي الذي لا يجيء صناعة ولا اكتسابا . . !

ولكن الملحوظ أن التنبؤ الطبيعي ليس وحده الغريب على منطق العقل ، بل إن

في فنون الصنعي من التكمين ظواهر قد تقصر العقول عن إدراكها ، رغم أن بعضها يدخل في نطاق التنبؤ العلمي السالف الذكر ، من حيث إنها نتائج لمقدمات تسبقها ، ومعلومات لعلل تؤدي إليها ، فإذا يكون موقف العقل من مثل هذه الظواهر . . ؟ أينكر صحتها استنادا إلى عجزه عن فهمها . . ؟ كلا ، فإن من الحق أن يقال إن الظاهرة قد يستقيم وجودها ، مع الجهل بتفسيرها والقصور عن تعميلها ، وفي ذلك يقول فلاسفة الرواقية الذين أبلوا في الدفاع عن التنبؤ بلاء حسنا ، أن إنكار قيام ظاهرة ما ، اعتمادا على عجز العقل عن فهمها ، يبرر عند من يجهل سر المغناطيسية أن ينكر جذب المغناطيس للحديد وهو يراه بعينه ، ويبيح لمن يعجز عن تعميل علاج الأمراض ببعض الحشائش ، أن ينكر أثر هذه الحشائش في شفاء المرضى ، وكم شهدت التجربة بصدق ذلك . . !!

وهذا صحيح في منطق العقل نفسه ، ولكن هل معنى هذا أن العقل مطالب — تمشيا مع هذا المنطق — بأن يسلم بصحة ما يقصر عن إدراكه وتعميله . . ؟ كلا ، فإن بعض الذين أوتوا المهارة في الألعاب ، ( كالحواة ونحوهم ) قد يأتون من الألعاب والحيل ما يثير كل دهشة ، وتقصر عن إدراكه العقول ، ومع هذا فإن بعضهم — على الأقل — لا يدعي بأن ألعابه التي يبدو أن تفسيرها ليس في متناول العقول ، أثر من آثار القوى الحارقة لنواميس الطبيعة . . ! فكيف تطالب العقل بمد هذا بأن يدعى للتسليم بصحة كل ظاهرة لا يتوى على فهمها . . ؟ في الحق إن من الخطأ البين أن ينتهى الإنسان من قصور العقل عن التفسير والتعميل ، إلى القطع بالإنكار أو الجزم بالتأييد .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن العقل ليس كل ما لدى الإنسان من أدوات

المعرفة ، وإن كان في رأينا أكلها جميعا .. ! وإن صح هذا كان من حق الإنسان أن يتردد في الإذعان لبعض أحكام العقل ، وأن يترث في إنكار الظواهر التي عجز هذا العقل بمناهجه عن تفسيرها ، هذا إلى احتمال أن تمهياً له في مقبل الأيام قدرة تمكنه من فهم ما عجز عنه في حاضره .. ! وتاريخ العقل أعدل شاهد على ما نقول .

وسمى هذا أن قصور العقل عن إدراك ظاهرة ما ، أو تضاد السلب والإيجاب بصدد حكمه عليها ، لا يبرر التأدي من ذلك إلى متابعة هذا القصور ، والإذعان لهذا المعجز ، والانتهاى إلى إنكار الظاهرة نفسها ، وإذا كنت قد كفت للعقل سلطانه في علاج هذا البحث منذ بدايته إلى نهايته ، فقد ألزمته حد الترجيح ، وأيدت عليه أن يتجاوز مجاله إلى نطاق اليقين ، رعايةً لحُدس القلب ، واتقاءً لما يحتمل أن يترتب على أفراد العقل من شطط التقدير ، وما أظن أنى — وأنا أكبر العقل وأعتبره أكمل أدوات المعرفة إطلاقاً — أغالى إذا قلت إن من الخير لمن لم يجد من منطق عقله ، ما يهديه إلى وجه الاطمئنان ، أن يترث في إصدار حكمه ، وحسب الإنسان في بعض الحالات وحي قلبه ، فربما كان هذا أصدق من لجاجة العقل وجموح تأملاته .. !

## فهرس الكتاب

صفحة

٦ - ٣

صفحة:

٢٤ - ٧

الباب الأول : علم الغيب عند مفكري الإسلام

١ - علم الغيب

حد الغيب ص ٩ - علم الغيب لا يجيء اكتساباً ١٠ - العلم بالغيب عند صفوة البشر ١١ -  
علة الإدراك الغيبي ١٣ - اتجاهات المفكرين في تفسير الوحي والإلهام ١٤ - الاتجاه  
الفلسفي ١٤ - الاتجاه الصوفي ١٥ - منابع هذه الأفكار : موقف القرآن الكريم ١٧ -  
موقف اليونان والرومان من العلم بالغيب ١٩ - المسلمون بين القرآن وتراث القدماء ٢٢ -  
ملاحظات على بعض ما سلف ٢٣

٩٠ - ٢٥

الباب الثاني : التنبؤ الطبيعي عند مفكري الإسلام

٣٩ - ٢٧

١ - إدراك الغيب عند الأنبياء

العلم النبوي ص ٢٧ - إمكان الوحي ٣٠ - نلقى النبوة والفلسفة ٣٢ - نماذج من  
نبوءات رسول الله ٣٣ - القرآن والعلم ٣٥ - بين الدين والعلم في هذا الصدد ٣٦ -  
منابع التفكير الإسلامي في الوحي : موقف القرآن ٣٦ - موقف اليونان والرومان من  
الوحي ٣٨

٦٧ - ٤٠

٢ - إدراك الغيب عند أهل الكشوف الصوفي ومنه البرهم

علاقة الولاية بالنبوة ٤٠ - الولاية دون النبوة ٤٠ - الولاية صنو النبوة ٤١ - الولاية

- أسمى من النبوة ٤٢ - الكشف عند الصوفية ٤٣ - عوائق الكشف الصوفي ٤٤ -  
طريقة الكشف عند الصوفية ٤٥ - الكشف عند أهل التصوف السني ٤٧ - الكشف  
عند أهل التصوف الإشرافي ٥١ - موقف القباء من الصوفية ٥٢  
أشباه الصوفية من مدركى الغيب ٥٤ - إدراك الغيب عند المجانين والمصروعين ٥٤ -  
إدراك الغيب عند المعتوهين من مريدى الصوفية ٥٥ - إدراك الغيب عند المرضى والمشرفين  
على الموت ٥٦ - منابع الكشف الصوفي في التراث القديم ٥٨ - موقف الدين الإسلامى  
من هذه الآراء ٦٠ - الكشف الصوفي في تراث اليونان والرومان : موقف الرواقية ٦١  
الفتوصية والأغلاطونية الجديدة وأثرهما في الكشف الصوفي ٦٣ - في التراث الشرقى  
القديم ٦٤ - أهل الكشف من المجانين والمرضى ومن إليهم ٦٥

٩٠ - ٦٨

### ٣ - الرؤيا الصادقة

- علاقة الرؤيا بالنبوة والولاية ٦٨ - مناهج المفكرين في تصور الرؤيا وتعليلها ٧٠ -  
الاتجاه الصوفي ٧١ - الاتجاه الفلسفى في تصورهما وتعليلها ٧٥ - مناقشة الادعاء بأنها وحي  
إلهى ٧٨ - تأويل الرؤيا ٨١ - نماذج من الرؤيا الصادقة وتعليلها ٨٣

### الباب الثالث : فنون التكهن الصنعى عند مفكرى الإسلام ٩١ - ١٦٣

فنون التكهن الصنعى ٩٣

١٠٤ - ٩٣

### ١ - علم الكهانة

- آفاق الكهانة ٩٣ - أصل الكهانة ٩٦ - صلة الكهانة بالنبوة ٩٧ - مراتب الكهان  
١٠١ - نموذج من الكهانة ١٠١

١٠٨ - ١٠٥

### ٢ - علم العرافة

- حدها وتميزها عن الكهانة ١٠٥ - نماذج من العرافة ١٠٨

٣ — علم الفأل والطيرة والهيافة ١١٠ - ١١٥

الفأل والطيرة ١١٠ - فن الهيافة ١١١ - الفأل والطيرة بين التأييد والإنكار ١١٢ -  
صفة الزاجر ١١٥

٤ — علم أعظام النجوم ١١٦ - ١٣٥

علم التنجيم ١١٦ - ميدانه ١١٧ - في تاريخه وتطوره ١١٩ - طرقة ١٢٢ - علم  
التنجيم بين أنصاره وخصومه ١٢٣ - علم التنجيم بين الإلهام والتجربة والاستدلال ١٢٩  
التنجيم في قصور الخفاء ١٣٢ - فروع النجوم ١٣٤

٥ — علم الفراسة وأسبابها ١٣٦ - ١٤٤

ماهيتها وآفاقها ١٣٦ - تفريع الفرانجية ١٣٧ - قياغة الأثر والبشر ١٣٩ - نماذج من  
قياغة الأثر ١٤٠ - قياغة البشر ١٤١ - أشباه الفراسة ١٤٣

٦ — علم السحر ١٤٥ - ١٥٢

موضوعه ١٤٥ - مكانه في مجال الإدراك الغيبي ١٤٨

٧ — موقف أهل الشرع من العلوم الساقطة ١٥٣ - ١٥٦

٨ — موقفنا من السكر من الصنعى ١٥٧ - ١٦٣

٩ — كلمة أفيمة ١٦٣ - ١٧٠

النبؤ بالغيب بين مفكرى الإسلام وفلاسفة اليونان والرومان ١٦٤ - نتائج التشابه في  
مصادر الأثرارة ومراكز الاستجابة ١٦٤ - عود إلى موقفنا من النبؤ ١٦٨ - فهرس  
الكتاب ١٧١ - كتب المؤلف ١٧٤

## كتب للمؤلف

- ١ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام - صدر فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية .  
فى أكتوبر ٩٤٥
- ٢ — الأحلام - بحث مقارن : جاز امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة فى مايو سنة ٩٤٣ وقامت بنشره مكتبة الآداب . ظهر فى آخر سبتمبر ٩٤٥
- ٣ — الشعرانى : إمام التصوف فى عصره - صدر فى سلسلة أعلام الإسلام .  
( للجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية )  
ظهر فى أغسطس ٩٤٥
- ٤ — الفلسفة والإلهيات Philosophy & Theology ترجمة عن ا . غليوم ،  
نشرت مع التعليق عليها فى كتاب تراث الإسلام The Legacy of Islam  
الذى قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم ظهر فى أكتوبر ٩٣٦
- ٥ — قصة الكفاح بين روما وقرطاجنه - قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر  
العلم .  
ظهر فى نوفمبر ٩٣٦
- ٦ — العلم بالغيب فى العالم القديم - لفيلسوف الرومان وخطيبهم «شيشرون» +  
٤٣ ق . م Cicero قدمت الترجمة مع التعليق عليها ملحقا لرسالة الدكتوراه  
السالفة الذكر .  
( سيطبع قريبا )
- ٧ — التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى - بحث جاز امتحان الماجستير بمرتبة  
الشرف فى يونيه ٩٣٨  
( سيطبع قريبا )

# مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها: الدكتور على عبدالصمدانى ، رئيس الجمعية - والدكتور عثمان أمين ، سكرتيرها العام

يشترك فيها أعضاء الباعثين فى الفلسفة والروحانيات . تستأنف الرهضة العلمية فى

السمرى ونجمل مسائل الفلسفة فى تناول الجميع ، ضرورة لسكل صنف وباهت .

ظهر منها :

- ١ - فيلسوف العرب والمعلم الثانى : لمعالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا  
الرئيس الفخرى للجمعية ووزير الأوقاف
- ٢ - الأسرة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي  
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب
- ٣ - شخصيات ومذاهب فلسفية : للدكتور عثمان أمين  
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب
- ٤ - الحياة الروحية فى الإسلام : للدكتور محمد مصطفى حاهى  
مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب
- ٥ - الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى  
رئيس قسم الفلسفة بجامعة فاروق
- ٦ - التصوف وفريد الدين العطار : للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام  
عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
- ٧ - المسئولية والجزاء : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي  
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب
- ٨ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام : للدكتور توفيق الطويل  
مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول